نص الملحمة

obeikandl.com

obeikandl.com

النشيد الأول

نَفْى السَّيد

الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون أرسل السَّيد ليقبض الجزية من ملك إشبيلية المسلم - الكونت القشتالى غرسية أوردونييث يهاجم ملك إشبيلية - السَّيد يدافع عنه لأنه فى حماية قشتالة، وينتصر على غرسية أوردونييث فى «قبرة» ، ويأسره ذليلا - السَّيد يعود بالجزية إلى قشتالة ولكن أعداءه يوقعون بينه وبين الملك - الملك ينفى السيِّد[1].

أرسل الملك دون ألفونسو الفارس رُوى ديات، سيدى لكى يقبض الجزية التى يدفعها له ملكا قرطبة وإشبيلية.

وكان المعتمد ملك إشبيلية، والمظفر ملك غرناطة، فى أوج عداوتهما، ويكره كل منهما الآخر حتى الموت. وكان مع المظفر ملك غرناطة بعض الرجال الأغنياء الذين يساعدونه : الكونت غرسية أوردونييث، وفرتون سانتشيث، صهر دون غرسية ملك نبرّة، ولوبى سانتشيث... وكل واحد من هؤلاء الرجال الأغنياء يساعد المظفر بكل قوته، وكانوا جميعاً ضد المعتمد ملك إشبيلية.

---

(١) الورقة الأولى من المخطوطة الوحيدة للملحمة ضائعة، فاستعيض عنها بنقل نصها من كتاب «مدونة العشرين ملكاً»، وجاءت بالكثير من أجزاء الملحمة رواية منثورة، وما نقلته المدونة مترجم من كتاب «التاريخ اللاتينى للسيد».

وعندما عرف السِّيد رُوى دِياث أنهم اتخذوا موقف العداوة من ملك إشبيلية الذى كان تابعاً، ويدفع الجزية، للملك ألفونسو سيّده، وقع ذلك منه موقعاً سيئاً، وعز عليه كثيراً، فأرسل إليهم جميعاً رسائل يرجوهم فيها أن يعدلوا عن الهجوم على ملك إشبيلية، وتخريب أراضيه، للصلة التى تربطه بالملك دُون ألفونسو، فإذا أصروا على ذلك، مهما يكن الثمن، فليعلموا أن واجب الملك دون ألفونسو أن يساعد تابعه، ولأنه يدفع له الجزية فلم يُقم ملك غرناطة ولا رجاله الأثرياء اعتباراً لرسائل السِّيد، وهاجموا بعنف ملك إشبيلية، وخربّوا كل أراضيه حتى حصن قبرة.

وعندما رأى السِّيد رُوى دِياث هذا جمع كل ما استطاع من جيوش من مسلمين ومسيحيين، وسار ضد ملك غرناطة ليطرده، من أراضى منك إشبيلية. ولما عرف ملك غرناطة والرجال الأثرياء الذى كانوا معه، أنه متوجه إليهم بهذا القصد، أرسلوا إليه يقولون : إنه ليس ذلك الرجل الذى يستطيع أن يخرجهم من تلك الأرض. وعندما سمع رُوى دِياث السِّيد هذا أسرَّ فى نفسه : إنه سوف يخسر شرفه إذا لم يعاقبهم. فهاجمهم، والتحم معهم فى معركة فاصلة، استمرت من الساعة الثالثة فجراً حتى منتصف النهار، وقُتِل فيها كثيرون، مسلمون ومسيحيّون، من أتباع ملك غرناطة. لقد انتصر عليهم السِّيد وأرغمهم على الهروب، وأسر السِّيد فى هذه المعركة الكونت دُون غرسية أوردونييث، وانتزع شعيرات من لحيته. . . وأسر فرساناً آخرين كثيرين، يعجز المرء عن حصرهم. وظلوا أسارى السِّيد طيلة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم جميعًا. وخلال أسْرِهم أرسل رجاله فأخذوا غنائم ما تبق فى ساحة المعركة من متاع وثروات. ومن هناك رحل السِّيد مع رفاقه وغنائمه، ليقابل المعتمد ملك إشبيلية.

فى إشبيلية أعطى السَّيدُ الملكَ، ورجالَه المسلمين، من الغنائم ما كان أخذَ منهم وتعرفوا عليه، وأعطاهم مما تبقى ما أرادوا، ومن تلك اللحظة أطلق المسلمون والمسيحيون على رُوى دِياث دى بيبار لقب : السَّيد القنبيطور، أى المحارب.

وقد حَمله المعتمد بالهبات الثمينة، وأعطاه الجزية التى جاء ليقبضها... وعاد السَّيد مع الجزية ليرى الملك ألفونسو سيده. فأحسن الملك استقباله، وسر كثيراً، وهنأه على كل مواقفه، مما غرس الحسد فى نفوس كثيرين، فكادوا له، وأوقعوا بينه وبين الملك...

ولما كان الملك غضوباً وحاقداً على السيد، فقد أعارهم سمعه... وأرسل إلى السَّيد رسالة يطلب منه أن يخرج من مملكته وقرأ السَّيد الرسالة الملكية، وقد فاض به الحزن، لكنه لم يرد أن يعصى للملك أمراً، ولم يبق من أجل ليرحل عن المملكة غير تسعة أيام فحسب.

١

أرسل السَّيد فى طلب أقاربه وأتباعه، وتحدث إليهم كيف أمره الملك أن يخرج من كل أرضه، ولم يعطه أجلا غير تسعة أيام، ويريد أن يعرف من منهم يريد أن يهاجر معه ومن يفضل أن يبقى.

« والذين يريدون أن يأتوا معى سوف يحميهم الله.
والذين يريدون أن يبقوا سوف أقول لهم كصديق مودعاً : إلى اللقاء ».

حينئذ ردَّ **ألبار هانييث** ابن أخيه :

معك ياسيد، معك نمضى عبر القفار والعمار،

ولن ندعك أبداً ما دام البدن صحيحاً معافى.
وحتى تهلك فى خدمتك الخيل والبغال.
وتبلى ملابسنا، وتنفد كل أموالنا،
ونحن الآن، ودائماً، فى خدمتك أتباع مخلصون.
وأمنّوا كلهم مجتمعين على ما قاله **دون ألبارو.**
فشكرهم سيدى جميعاً على كل ما أبدوْه.
وفى الحال خرج من بيبار إلى برغش بلا رواحة،
تاركاً قصوره خالية ومهجورة[1]،
وعيناه تفيضان دمعاً.
ثم التفت وراءه، ورلح يتأمّلها للمرة الأخيرة:
رأى الأبواب مفتوحة وأقفالها مرسلة،
والمشاجب عارية من الملابس، عباءات من قطن أو جلود،
ولم يكن هناك أيضاً صقور متوفّزة ولا نسور مدربة.
وتنهد السيِّد عميق الألم، طافح الحزن.
وتحدث كالعهد به، دقيقاً وبحساب:
«شكراً يا إلهى، يا أبانا الذى فى الأعالى،
أعدائى الملاعين هم الذين سببوا لى هذا الأذى».

---

(١) هنا تنتهى الورقة الضائعة من الملحمة فى مخطوطة بدرو أباد، وقد نقل هذا الجزء الضائع من «مدونة العشرين ملكاً»، وبالبيت التالى تبدأ الملحمة، كما وردت فى المخطوطة الوحيدة التى وصلتنا.

٢

تفاؤل وتطيُّر فى طريق برغش

لقد همزوا الخيل، وأطلقوا لأزمتها العنان،
وهم خارجون من بيبار رأوا الغربان عن يمينهم،
وهم على مشارف برغش كانت تحلق على يسارهم،
فهز لها سيدى كتفيه، ونتر رأسه :
« الغنائم يا **ألبار هانيبيث** أخرجتنا من أرضنا،
لكن، وبشرف عظيم، سوف نعود إلى قشتالة ».

٣

السيد يدخل برغش

دخل سيدى **رُوى دياث** برغش،
وحوله ستون يحملون الرايات،
وخرجت لرؤيته النساء والرجال،
وفى كل نافذة بُرغُشيّون وبُرغشيات،
والعيون الباكية تفضح أحزانها،
ومن كل الأفواه تخرج نفس الحسرة :
« يا إلهى... يا له من تابع صالح لو كان له سَيد طيِّب ! ».

٤

لا أحد يستضيف السيد

- طفلة صغيرة فحسب تتوجه إليه تأمره أن يبتعد -
السيِّد يضطر إلى أن يحط رحاله خارج المدينة فى الرمال

بكل ترحاب ودوا لو يستضيفونه، لكن أحداً لم يجرؤ:
كانوا خائفين من الملك **دون ألفونسو**، وغضبه على السِّيد شديد،
وقبل أن يسقط الليل جاءت إلى برغش رسائل،
تحمل أوامر شديدة الصرامة، أجازها الملك بتوقيعه:
«لا أحد يستضيف **سيدى رُوِى دياث** فى منزله،
ومن يجرؤ على ذلك فقد قال الملك كلمته،
سوف يفقد أملاكه، ومن وجهه تُقتْلع عيناه،
بل ويفقد جسمه وروحه».
فعم السكان المسيحيين جميعاً حزن كظيم،
وعندما رأوا السِّيد أعرضوا عنه، ومروا به صامتين.

وتقدم القنبيطور متوجها إلى بيته؛
وعندما بلغ الباب وجده مغلقاً بإحكام،
صنع هذا سكان المنزل خوفاً من الملك ألفونسو،
وهو يؤثرون أن يتركوا السِّيد يحطم الباب على أن يفتحوا له،
بينما أتباع سيدى بأصوات عالية ينادون،
وسكانه من الداخل حتى بكلمة واحدة لا يجيبون.
فهمز السِّيد فرسه واقترب من الباب،
ثم انتزع قدمه من المهماز، وركله بخبطة قوية،
ولكن الباب لم ينفتح لأنه كان محكم الإغلاق.
واعترضته طفلة صغيرة ذات سنوات تسع:
«قنبيطور، يا من فى ساعة طيبة تمنطقت سيفك!،
لقد منعنا منه الملك، وبالأمس جاءت رسالة،

تحمل أوامر صارمة، وبالطابع الملكى ممهورة،
ولن نجرؤ، لأى سبب، أن نقدم لك أو لأتباعك مأوى،
وإذا جرؤ أحد على فعله فقد ثروته ومسكنه،
بل وأكثر من ذلك، يفقد عينيه،
وإذا نزل بنا العقاب يا سيد فأنت لا تربح من أذانا شيئاً،
ارحل إذن، وليحرسك الخالق، ويسبغ عليك نعمه المقدسة»،
هذا ما قالته الطفلة، ثم عادت إلى بيتها.

وفهم السّيد أن الملك لن يكون عَفُوًّا،
فابتعد عن الباب، وعَبْر برغش مضى مرتحلا،
وعندما وصل إلى كنيسة مريم المقدسة ترجلّ،
وجثا بركبتيه على الأرض مصلياً، ودعا من قلبه.

وعندما انتهى من صلاته امتطى جواده من جديد،
وخرج من باب «مريم المقدسة» وعبر نهر أرْلانثون،
وبجوار برغش، بعد النهر، على الرمال حط رحاله،
ثم أمر فنصبت له الخيمة، وترجل عن جواده،
وهكذا سيدى، **رؤى ديات**، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة،
عندما لم ير أحداً يستضيفه اتخذ من الرمل معسكراً،
وقريباً منه استراح خلصاؤه الذين رافقوه،
وعسكر السيد كما لو كان فى قمة الجبل،
لقد كان ممنوعاً عليه فى برغش أن يشترى من متجر أو بيت
أى شيء يعينه على العيش،
ولم يجرؤ أحد على أن يبيع له حتى أتفه الأشياء.

٥

مارتين أنتولينييث يجيء إلى برغش ليقدم إلى السَّيد زادا

إنه **مارتين أنتولينييث** البرغشى الوفى،
من جاء يحمل إلى السَّيد ورفاقه خبزاً ونبيذاً،
لم يشتره لهم؛ وإنما أهداهم مما يملك،
أمدهم بما هو ضرورى من زاد ومئونة،
فُسَرّ بها سيدى القنبيطور الوفى،
وكل المحاربين الذين فى رفقته.

وتحدث البرغشى فاسمعوا ما قال :
« ياقنبيطور، يا من ولدت فى لحظة سعد !،
نبق هذه الليلة هنا؛ ثم نرحل فجراً،
لأنى سأُعاقب بما قدمت إليكم،
وسوف يلاحقنى غضب **الملك ألفونسو** أكيداً،
وإذا هربت معكم سليما معافى، وعشت إلى جواركم،
فقريباً أو بعيداً سوف يحتاجنى الملك صديقاً،
وإذا لم يحتجنى، فما يهمنى أىّ طريق سلكت.

٦

السيد فقير بلا مال يلجأ إلى فطنة مارتين أنتولينييث - صناديق الرمل

وتحدث سيدى، من تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة :

«**مارتين أنتولينييث**، أيها الفارس الشجاع!
إذا عشتُ فسوف أضاعف لك راتبك؛
لقد أنفقت الذهب والفضة لسد حاجتى،
وكما ترى؛ رحلت دون أن أحمل معى شيئاً،
وأحتاج إلى الذهب والفضة لكل حُملتى،
وبالقوة يجب أن أنالهما؛ فباللطف لن يعطينى أحد شيئاً؛
وعملا بمشورتكم أريد أن أصنع صندوقين،
نملؤهما رملا، وهكذا يصبحان ثقيلين،
صندوقين مغطيين بجلد مزخرف، ومسمرينْ بفن.

٧

الصندوقان يُصنعان للحصول بهما على أموال من يهوديين بُرْغُشييْن

ليكنْ لون الجلد أحمر، والمسامير واضحة التذهيب.
اذهب إلى **راكيل وفيداس** وقل لهما فى السر:
«إنهم فى **برغش** رفضوا أن يبيعونى، والملك غضب علىّ ونفانى،
ولا أستطيع أن أحمل معى ثروتى، ومن ثقلها أعانى،
وأفضل أن أرهنها لكم مقابل مبلغ معقول،
وعليكما أن تحملا الصندوقين ليلا حتى لا يراكم المسيحيون،
الخالق وحده يراكم، ومعه كل القديسين،
وما من طريق آخر، فأنا مكره على ما أصنع الآن».

٨

مارتين أنتولينييث يعود إلى برغش بحثاً عن اليهوديين

ولم يتأخر **مارتين أنتولينييث**،
ذهب إلى برغش، ودخل الحصن، حيث يعيش اليهود،
وطلب أن يرى **راكيل وفيداس** سريعاً.

٩

اتفاق مارتين أنتولينييث مع اليهوديين - اليهوديان يذهبان إلى خيمة السيِّد ويحملان الصندوقين مملؤين رملا

كان **راكيل وفيداس** جالسين سوِّيا، مشغولين كليهما
يعدّان الاموال الطائلة التي ربحاها معاً،

وعندما وصل **مارتين أنتولينييث** سأل حذراً مترقباً :
« أين **راكيل وفيداس**، صديقاي الغاليان ؟
أريد أن أتحدث إليهما وحدهما »
لم يتأخرا عليه، وانتحى الثلاثة مكاناً قصياً يتسارّون :

« **راكيل وفيداس**، مُدَّا يديكما كلاكما، عاهدان،
لا تكشفا سري لمخلوق، لا للمسلمين ولا للمسيحيين،
سأجعل منكما ثريين إلى الأبد، ولن تعيشا مطية العمل،
اعلما أن **القنبيطور** هو القائم على استلام الجزية،
وقد تسلم أموالا طائلة، الذهب فيها أكثر من الفضة،
واحتفظ لنفسه منها بكل ما هو غال وثمين،

ولهذا اتهمه حسّاده عند الملك بأنه استولى على خير ما فيها،
وفى الحقيقة يملك صندوقين مملوءين من الذهب النضار.
ولعلكما تعرفان أن الملك غاضب عليه،
فاضطر إلى ترك ثروته وحصونه وقصوره،
ولا يستطيع الرحيل حاملا معه ثرواته من الذهب حتى لا ينكشف أمره،
ويريد **القنبيطور** أن يترك الصندوقين عندكما،
وأن تقرضاه مقابل رهنهما ما هو معقول ومقبول،
خذا إذن الصندوقين، وضعاهما فى حرز أمين.
ويقسم عظيم احلفا، وعاهداني كلاكما،
ألا تفتحاهما طوال ما يتبقى من العام».

وفى تأمل عميق فكر **راكيل وفيداس** لحظة:
«الذى يهمنا دائماً أن نربح من أية صفقة شيئاً،
ونحن نعرف أن **السيِّد** ربح كثيرًا،
عندما اقتحم أرض المسلمين وقبض الأموال منهم،
ومن يملك ثروات طائلة لا ينام مطمئنا،
سوف نأخذ هذين الصندوقين إذن،
ونضعهما فى مكان أمين غير معروف، لا يبلغه أحد،
ولكن، حَدِّثْنا عن **السيِّد**، كم يطلب فى مقابلهما مالا؟
وكم من الفائدة يعطينا لما تبقى من العام».

فردّ **مارتين أنتولينييث** الحذر فى هدوء:
«سيدى يحبّ ما هو حق وعدل،
رجال حوله، وآخرون من كل صوب يجيئون، وكلهم معدمون،

وأعتقد أن ست مائة مارك تكفيه لمواجهة نفقات تابعيه».

قال **راكيل وفيداس**: «سنعطيها له مسرورين».

فردّ **مارتين**: «انظرا، الليل يزحف علينا، **والسيد** عجل، نافد الصبر،

وفى حاجة ماسة لأن تعطونا الست مائة مارك الآن».

وردّ **راكيل وفيداس**: «الاتفاقات التجارية لا تتم هكذا،

بل نأخذ نحن أولا، ثم نعطيك ثانياً».

فقال **مارتين أنتولينييث**: «ليس لدى مانع،

ومعاً، نذهب ثلاثتنا متفقين، لرؤية **القنبيطور**،

ثم نعينكم، وذلك حق وواجب،

فى نقل الصندوقين؛ ووضعهما فى مكان أمين،

على ألا يعرف ذلك إنسان، لا مسلم ولا مسيحى».

فردّ **راكيل وفيداس**: متفقون،، حينئذ ندفع لكم؛

ما إن يصل الصندوقان هناك، حتى تكون فى يدك ست مائة مارك».

مسرعاً امتطى **مارتين أنتولينييث** صهوة جواده عائداً،

وتبعه **راكيل وفيداس** راغبين ومسرورين.

لم يمروّا عبْر الجسر، ولكنهم خاضوا صفحة النهر،

حتى لايحس بهم مخلوق فى برغش،

وعجلين دخلوا خيمة **القنبيطور**،

وما إن دخلوا حتى تقدم اليهوديان، وقبّلا يد السيِّد،

وابتسم سيدى، ثم تحدث إليهما:

«يادون راكيل، ويادون فيداس، لعلكما نسيتمانى!،

إنى أدع هذه الأرض مرغماً لأن الملك نفانى،

ويخيل إلىّ أنكما تذكران عنى شيئًا،
ما مد الله فى حياتكما فلن تتعرضا لمزيد من قسوة العمل».
حينئذ قبّل **راكيل وفيداس** يد سيدى.
ثم أعلن الطيّب **مارتين انتوليننييث** صيغة الاتفاق،
«ست مائة مارك مقابل رهن الصندوقين،
يحتفظان بهما حتى نهاية العام،
على هذا تم الاتفاق، وعلى تنفيذه حلفًا،
وإذا فتحاهما قبل انتهاء السنة يعاقبان أكيدا،
ولن يعطيهما سيدى من أرباحهما درهما واحداً».
وقال **مارتين أنتوليننييث**: «احملا الصندوقين، الآن، سريعاً،
احمل ياراكيل، وأنت **يافيداس**، وضعاهما فى حرز أمين،
وسأذهب معكما لأقبض المال المتفق عليه،
لأن سيدى عليه أن يرحل قبل أن تغنى الديكة»
يا لسرورهما وهما يحملان الصندوقين!
ولم يستطيعا رفعهما رغم قوتهما،
لقد غمرت البهجة **راكيل وفيداس** فرحاً بما أصابا من أموال،
ولأنهما سوف ينفقان ما تبقى لهما من الحياة فى ثراء.

١٠

اليهوديان يودعان السيّد - مارتين أنتوليننييث يذهب مع اليهوديين إلى برغش

أخذ **راكيل** يد سيدى ليقبلها:

« **قنبيطور!**... يا من فى ساعة طيبة تمنطق سيفه،
دع قشتالة إلى أرض بعيدة، اذهب وعش مع أناس لا تعرفهم،
ذلك هو حظك، وستكون أرباحك عظيمة،
ياسيدى، أقبّل يدكم، وأرجو صنيعا :

عباءة من جلد، عربية الصنع، جميلة الشكل، حمراء اللون »
وقال السيِّد : « شيء يسرنى، وأعدكم بإرسالها، كأنها قد جاءتكم فعلا،
سوف أرسلها لكم من هناك وإلا فاخصما ثمنها مما فى الصندوقين »

حمل **راكيل وفيداس** الصندوقين،
ومعهما **مارتين أنتولينييث**، ودخلوا بُرغش متخفيِّن.
وفى سرية تامة وحذر شديد وصلوا البيت،
وفى وسط القصر بسطا مُصلى[1]
وفوقها ملاءة ناصعة البياض، دقيقة النسج،
وعليها نثرا دفعة واحدة ثلاث مائة مارك من الفضة،
عدّها **دون مارتينو**، وبلا نقد أخذها،
والثلاث مائة الباقية سوف يدفعانها ذهبا نضارا.
وملأ **دون مارتينو** الأكياس الخمسة التى أحضرها معه،
وعندما أتم هذا اصغوا إلى ماتحدّث به :
« يادون راكيل و يادون فيداس، الصندوقان الآن معكما،
وأنا مما ربحتم بسببى أستحق هدية، زوجا من النعال ! »

---

(١) أى سجادة، ولكن الملحمة تستخدم الكلمة العربية Almocalla وكانت شائعة الاستعمال فى الأندلس، عند المسلمين والمسيحيين على السواء، من يتكلم العربية أو من يتكلم الرومانثية.

١١

السيد وقد تسلم المال من مارتين أنتولينييث يتهيأ للرحيل

وانتحى **راكيل وفيداس** جانبا، وبينهما دار الحديث همسا،
فلنعطه هديةً ثمينة، لقد بحث عناً وأثرانا :
« يا **مارتين أنتولينيث**، أنت بُرغُشيّ معدود،
تستحق منا مكافأة طيبة، سندفعها لك شاكرين،
ومنها تستطيع أن تشترى عباءة غالية، ونعلا من جلد متين،
سنقدم لك هدية ثلاثين ماركا كاملة،
إنها حق لك فقد صنعت فينا معروفا، وطبقا للاتفاق
عند الاختلاف أنت شاهد العقد الذى أمضيناه ».
فشكرهما **دون مارتين** وقبض الثلاثين ماركا،
وبعد قليل خرج من البيت فودّعاه كلاهما،
خَلف برغش وراءه، وعَبَر جسر أرْلانثون،
وذهب إلى خيمة من وُلد فى لحظة سعيدة،
فاستقبله **السيِّد** مفتوح الذراعين،
« وصلت؟ **مارتين أنتولينييث**، يا تابعى الوفى،
متى يأتى اليوم الذى أستطيع أن أكافئك فيه ! ».
- « نعم، أنا هو، **يا قنبيطور**، وأحمل معى أخبارا طيبة،
ست مائة مارك لك، وثلاثون ربحتها لى،
مُرْ بالخيمة تُطوى، وهيّا بنا سريعا،
لنبلغ مدينة سان بطرس دى كاردينيا مع غناء الدِّيكة،

ونرى زوجتك، هذه السيدة العاقلة النبيلة،
فلنطو الأرض طيًّا، ونخرج من مملكة قشتالة،
شيء لابد ن نفعله، فالأجل المحدّد للنفى قارب النفاد».

١٢

السيد يمتطى جواده، ويودع كتدرائية بزغش وينذر بأن يصلى ألف مرة فى مذبح العذراء.

وما إن قيلت هذه الكلمات حتى طويت الخيمة،
وركب سيدى ورفاقه الخيل مسرعين،
ونحو شنتمرية وجه الفارس جواده،
ورفع يده اليمنى ملوّحاً ثم صلّب يقول :
«أشكرك يا إلهى، يا مالك الأرض والسماء،
لتحفظنى رعايتك المجيدة **يا مريم** المقدسة !
من هنا سأفارق قشتالة لأن الملك غاصب علىّ،
ولست أدرى هل أعود يوماً للعيش فيها مرة أخرى،
فلتصحبنى حمايتك فى رحلتى يا مجيدة،
ساعدينى، أعينينى فى ليلى ونهارى،
وإذا ما فعلت ذلك، وتحققتْ آمالى،
فسأقدّم لمذبحك هبات جميلة وغالية،
ولك نذرٌ علىّ أن أصلّى ألف قدّاس».

١٣

مارتين أنتولينييث يعود إلى المدينة

ألقى الرجل الرزين القوى كلمة الوداع حزينا،
ثم أرسلوا الأعنّة، وحثّوا الخطى،
وقال **مارتين أنتولينييث** البُرغُشى الوفى :
« سأذهب لأرى زوجتى، لأصبّرها، وسأودّعها هادئا،
وأرشدها كيف تتأسّى فى غيبتى،
وإذا صادر الملك ثروتى فلن يهمنى،
وسوف أعود إليكم ثانية قبل أن تشرق الشمس ».

١٤

السيد يذهب إلى كاردينيا ليودع أسرته

بينما عاد دون **مارتينو** إلى بُرغُش أخذ سيدى وجهة أخرى،
انطلق إلى سان بطرس دى كاردينيا، وجدّت الخيل ما استطاعت،
وحوله رجال يفتدونه بكل حماسة،
وعندما وصل **القنبيطور** الطيب إلى سان بطرس،
وجد الشمّاس **دون شانجه**، وهو مسيحى ومخلص للخالق،
يصلى مع الفجر الذاهب صلاة الصباح لله،
وهناك كانت **دونيا خيمينا** وخمس سيدات أخريات جئن معها،
تدعو القديس بطرس، والخالق :
« أنت، يا هادى الجميع، احفظ سيدى القنبيطور ».

١٥

رهبان كاردينيا يستقبلون السيد وتصل خمينا وبنتاها للقاء المنفى

طرقوا الباب. وشاع الخبر بين الجميع،
يا إلهى!... كان وجه الشماس **دون شانجه** ينضح بشرا.
ووسط المشاعل والقناديل ذهبوا إلى الفناء.
وفى بهجة عارمة استقبلوا من وُلدَ فى لحظة سعيدة،
وقال الشماس **شانجه**: «شكرا لله يا سيدى»
أنتم الآن عندى، إلى جوارى، وستكونون ضيوفى».
وقال **السيد**، من ولد فى لحظة سعد:
«شكرا سيدى الشماس وبركم مدفوع،
سوف أعد الطعام أنا، لى ولأتباعى،
ولأنى مكره على الرحيل عن هذه الأرض سأترك لكم خمسين ماركا،
وإذا مد الله فى حياتى فسوف أدفعه لكم مضاعفا،
فلا أودُّ أن أحمل الدير مزيدا من النفقات؛
ولدُونيا **خمينا** أعطيكم خمسين ماركا أخرى،
هى وبناتها، ومن معها من سيِّدات، آوِهنّ هذا العام،
سأترك لكم بنتىَّ طفلتين، فأحطمها برعايتك،
أوصيك بهن خاصة، أنت يا شماس، **دون شانْجهْ**،
هما وزوجى، اعتن بهن جيدا، وقدم لهن كل ضروب الرعاية،
وإذا نفد المال، أو نقصكم شيء، فسوف أرسل لكم ما تحتاجون،
كل مارك تنفقه عليهن أردُّه إلى الدير أربعة».

وأمَّن الشماس على قوله ووافق مغتبطا،
هاهى **دونيا خمينا** قادمة مع بنتيها،
كل طفلة مع حاضنتها تحملها بين ذراعيها،
واقتربت **دونيا خمينا**، وأمام **القنبيطور** جثت على ركبتيها،
تبكى غزيرة الدمع، تريد تقبيل يديه :
«شكرا **قنبيطور**، يا من وُلدت فى لحظة سعد؛
إن دسائس المؤذين المخربين أخرجتك من بلدك منفيا».

١٦

خمينا تأسى لأن طفولة بنتيها بلا حماية السيد يأمل أن يتزوجن زواجا مشرفا

«اسمعنى ياسيد؛ يا صاحب اللحية الغزيرة،
أنا هنا فى حضرتك، وبنتاك
غَضَّتان، ومازالتا بعدُ طفلتين،
وهناك السيدات اللائى يقمن على خدمتى،
وفيما أرى أنت تتهيأ للرحيل،
وسنفترق عنك من هذه اللحظة إلى حين،
فبحق مريم المقدسة هبنا نصيحة مخلصة».
ففتح ذراعيه واحتضن طفلتيه، صاحب اللحية الجميلة!،
وضمهما إلى قلبه فقد كان يحبهما كثيراً.
وبكت عيناه بدمع غزير وتنهد عميقاً :
«يا **دُونيا خمينا**، يا زوجتى الوفية،

أحبك كثيراً، مثل ما أحب نفسى.
أرانى مكرهاً على الرحيل، وأحياء سنفترق منذ اللحظة.
سأذهب أنا، وأنت هنا تتألمين.
إليك أضرع يا إلهى، ويا مريم المقدسة :
بيدىّ هاتين أزوِّج بنتينا،
وهبنى حظا وطول عمر،
لكى أسعدكم يا زوجتى الشريفة».

١٧

مئات القشتاليين يتجمعون فى برغش ليرحلوا مع السيد

أعدوًّا وليمة كبرى للقنبيطور الطيب،
وفى نغم مؤثر بدأت أجراس كنيسة سان بطرس تدق،
وعَبْر قشتالة كلها، بين قراها، تحدَّث الناس بالخبر،
كيف رحل سيدى القنبيطور عن أرضه منفيًّا.
بعض الذين تبعوه خسروا قصورهم، وفقد الآخرون ألقابهم،
وفى نفس اليوم عَبَر جسر أرلانثون؛
مائة وخمسة عشر فارساً مجتمعين؛
كلهم يسأل عن سيدى القنبيطور،
وانضم إليهم **مارتين أنتولينييث**،
ثم اتجهوا جميعاً إلى سان بطرس ليلقوا من ولُدَ فى ساعة طيبة.

١٨

المائة قشتالى يصلون إلى كاردينيا ويعلنون ولاءهم للسيد - السيد يتهيأ لمواصلة السير فى الغد - قداس الصباح فى كاردينيا - صلاة خمينا - وداع السيد لأسرته - وصايا السيد الأخيرة لشماس كاردينيا - السيد يسلك طريقه نحو المنفى، ويهبط الليل بعد أن اجتاز نهر دويره.

وعندما رأى سيدى، **ابن بيبار**،
أنَّ جماعته نمت، وقوتهم زادت،
امتطى جواده مسرعا وخرج للقائهم،
وعندما وقعت عينه عليهم غلبته الابتسامة،
ثم أقبلوا عليه جميعا يقبّلون يده ولاء.
وتكلم سيدى صادق العزيمة قويا :
إنى لأرجو الله، والأب الروحى،
وقد تركتم من أجلى بيوتكم وأراضيكم،
أن أصنع لكم الكثير الطيب قبل أن أموت،
وما خسرتموه لن يضيع سدىً، سوف تقبضونه مضاعفاً.
كان سيدى طافح البِشْر بانضمام آخرين إليه، ونموّ جيشه،
وكل رجال الحملة مبتهجين مثله، لأنهم معه،
ومر من الأجل المحدد ستة أيام،
وبقيت ثلاثة فحسب، لا تزيد ساعة كما تعرفون،
وأمر الملك بمراقبة سيدى،

حتى إذا انقضى الأجل ولمّا يزل فى أرضه بعد،
لم يستطع الإفلات ولو دفع ما فى الأرض من فضة وذهب،
وبينما النهار يتلاشى، والليل يتأهب للدخول،
أمر كل فرسانه أن يجتمعوا :
« اسمعونى أيها الرجال، لست أريد أن أسبب لكم ألما،
ولو أن ما معى قليل أوّد أن أعطيكم نصيبكم كاملا،
وليكن واضحا فى أذهانكم ما يجب عليكم أن تفعلوا :
صباحا عندما تغنى الديكة،
أسرعوا وأسرجوا خيولكم،
وفى كنيسة سان بطرس سنجد الشماس الطيب يقرع أجراس الصباح،
فيصلى بنا قداس الثلاثة الأقداس،
فإذا انتهى القداس أسرعنا السير،
لأن نهاية الأجل تقترب، والطريق أمامنا ممتد ».
وما إنْ أمر سيدى حتى أطاع الجميع،
تصرّم الليل، واقترب الصبح،
وصاحت الديَكة للمرة الثانية فأسرعوا يُسْرجون.
وأجراس الصباح تدق سريعة متلاحقة ،
فذهب سيدى وزوجته إلى الكنيسة،
وعلى درجات المذبح ألقت **دونيا خمينا** بنفسها،
ترجو الخالق بكل ما فى وسعها،
أن يحفظ الله سيدى **القنبيطور** من كل سوء :
« ياإلهى المجيد، ياأبانا الذى فى السماء،

يا من خلقت السماء والأرض، وفى اليوم الثالث البحار،
وخلقت النجوم والقمر والشمس لتدفئ النهار
وتمثلت شخصا فى مريم المقدَّسة،
ووُلِدتَ فى بيت لحم كما كانت إرادتك،
فمجَّدك الرعاة، وتغنوا بحمدك!
وجاء ثلاثة ملوك من الجزيرة العربية ليعبدوك،
ملتشور، وجاسبار، وبالتسار،
وقدَّموا لك مسرورين الذهب والطيب والمرّ،
أنت، يامن أنقذت **يونس** عندما ابتلعه اليمّ،
ودانييل من الأسود فى السجن اللعين،
وقدمت العون فى روما للسنيور **سان سباستيان**،
وأنقذت سانتا **سوزان** من الجريمة المزيفة،
وعلى الأرض بقيت اثنين وثلاثين عاماً ياروح الإله،
وأظهرت معجزات كثيرة خارقة، واجبنا أن نتذكرها:
جعلت من الماء نبيذاً، ومن الحجر خبزا،
ونهض **أليعاذر** من القبر حيًّا لأنها كانت إرادتك،
وتركت اليهود يمسكون بك فيما يُسمى جبل الزيتون Calavrio،
ثم حملوك إلى جبل الجلجلة Golgota حيث صلبوك وتركوك تموت[1]،
وإلى جوارك لصان، واحد فى كل جانب،

---

(١) تصور الشاعر أن كلمتى Golgota, Calvario اسمان لجبلين مختلفين فى فلسطين، وأن اليهود أمسكوا بالمسيح على الجبل الأول، وصلبوه على الجبل الثانى، والحق أنهما اسمان لجبل واحد، الأول اسمه فى اللاتينية، والثانى فى العبريه، أما الجبل الذى أمسكوا بالمسيح عنده فهو جبل الزيتون.

أحدهما للجنة، والآخر لن يراها أبداً،
وأنت على الصليب صنعت معجزة كبرى؛
كان **لونجينوس** أعمى؛ لم ير فى حياته النور أبدا؛
ففتحت جنبه بسكين وجرى الدم غزيرا
على حد السكين الأسفل؛ وبه تلطخت يداك؛
فرفعها **لونجينوس** وحملها إلى وجهه،
وفتح عينه فرأى كل الجهات،
وفى الحال آمن بك لأنك أبرأته من علته،
ومادفنت فى القبر حتى عدت مبعوثاً،
ثم هبطت إلى الجحيم لأن هذه كانت إرادتك،
فحطمت الأبواب وأخرجت من هناك الآباء القديسين،
أنت ملك الملوك، وأبو العالم كله،
إننى أعبدك، وأومن بك، بكل قوق،
وأرجو القديس بطرس أن يساعدنى فى دعائى
لسيدى القنبيطور، كى يحفظه الله من كل سوء.

وإذا كنا سنفترق اليوم، فسوف نلتقى غداً إذا امتدت بنا الحياة».
وبانتهاء الدعاء انتهى القدّاس،
وخرج الجميع من الكنيسة وامتطوا صهوات الخيل.
وتأهب **السيِّد** ليعانق **دونيا خمينا**،
بينما **دونيا خمينا** تتأهب لتقبل يده،
تبكى عيناها والهة، ضائعة لا تعرف لها مستقرا!.
وعاد هو يتأملّ بنتيه:

« فى رحاب الله أدعكم، إنه الأب الروحى.
سنفترق الآن، والله وحده يعلم متى نعود فنلتقى ».
وبكت عيناه بدمع مرير كما لم يبك من قبل،
وفى مثل انتزاع الأظافر من اللحم كانت لحظة الوداع،
سيدى وأتباعه سارعوا إلى امتطاء جيادهم،
وألقى السيد نظرة على أتباعه مستعرضاً، ثم استدار برأسه.
وفى حماسة حارة تكلم **ميناليا ألبار هانييث :**
« سيد، يامَن وُلِدَ من أم فى لحظة طيبة، لتكن قويًا،
نحن نفكر فى الطريق ولا نريد أن نحيد عنه،
وكل هذه الآلام ستنقلب سعادة وأفراحاً،
والله الذى وهبنا الروح سوف يشملنا بحمايته ».
نادوا الشمّاس **شانجه**، ومن جديد عادوا يوصونه مؤكدين، أن يُعنى بدونيا خيمنا وطفلتيها اللاتى عنده،
وكل السيدات اللاتى يقمن فى رفقتها،
وتأكد الشماس من أنه سيربح تعويضاً كبيراً.
وعندما اقترب دون شانجه بادره **ألبار هانييث :**
« شمّاس !... إذا رأيت خلقاً قادمين لينضموا إلينا،
يحملون سلاحهم ويتهيئون للمسير،
فقل لهم أن يقتفوا أثرنا ويغذوا السير،
إنهم يستطيعون أن يلحقوا بنا، فى القرى كنا أو فى الوهاد ».
امتطوا صهوات الخيل، وأرسلوا أعنّتها، وبدأوا يتحركون،
لأن الأجل المحدَّد للنفى قارب الانتهاء،

واستسلم سيدى للنوم فى قرية « إسبناث دِى كان ».
وفى تلك الليلة لحق به خلق كثير، توافدوا عليه من كل مكان!
وبكرة اليوم التالى، تابعوا الرحلة من جديد،
فى هذه اللحظة كان **القنبيطور** الوفى يخلّف أرضه وراءه،
سلك طريقه على يسار مدينة سان استبيان دى غرماج الكبيرة،
ومن بعدها اجتاز القوبية حيث تنتهى قشتالة،
وكان عليه أن يمر بسفح كينيا،
ومن فوق قرية نيفاس دى بالوس عبر نهر دويره،
وعندما وصل مدينة فجير آثر سيدى أن يستريح،
وهناك أيضاً اجتمع حوله خلق كثير، جاءوا من كل حدب وصوب.

١٩

آخر ليلة أمضاها السيد فى قشتالة - ملاك يواسى المنفىّ

وعندما أقبل المساء نام سيدى،
غمره نعاس حلو فاستغرق فى نوم لذيذ،
وجاءه فى نومه الملاك جبريل:
« ارحل ياسيد، أيها القنبيطور الطيب،
فلم يحدث أبداً أن رحل رجل له من الحظ مالك،
ومادمتَ على قيْد الحياة، فكل شىء سيمضى لك على مايرام »،
وعندما استيقظ السيد من نومه، وتذكر حلمه، صلّب.

٢٠

السيد يعسكر على حدود قشتالة

صلّب على وجهه واستعاذ بالله،
وكان محمرَّ الوجه، طافح البِشْر، مما رأى فى منامه،
وفى الصباح التالى بدأوا يرحَلون،
كانوا يعرفون أنه اليوم الأخير من الأجل المضروب،
فاتجهوا نحو جبال ميبدس، وفيها حطوا رحالهم يستريحون،
على يمين قلاع أتيبنثا حيث يقيم المسلمون.

٢١

السيد يتثبت من عدد رجاله

اليوم لم يزل نهاراً، لما تغرب شمسه بعد،
فقام سيدى **القنبيطور** باستعراض قواته، وتبين عددهم،
ودون احتساب الرَجالَة، والشجعان الذين معه،
أحصى عددَهم فكانوا ثلاث مائة فارس، كلهم يحملون رايات.

٢٢

السيد يدخل مملكة طليطلة الإسلامية وهى فى حماية الملك ألفونسو، وتدفع له الجزية

قدِّموا الشعيرَ للخيل مبكرين، ينصركم الخالق!،
مَن أراد أن يأكل فعل، ومن لم يرد فليسرع بالركوب.

سوف نعبر سلسلة الجبال وهى مرتفعة وعسيرة،
ومن ثَم نستطيع هذه الليلة أن نخلف أرض الملك **ألفونسو** وراءنا،
وبعد ذلك من يبحث عناً سريعا يجدنا.
ليلا عبروا سلسلة الجبال، ثم أشرق الفجر،
وتحت، عبر السفح، بدأوا جميعاً يسيرون.
ووسط غابة مخضرة وواسعة،
تهيَّأ سِيدى ليستريح؛ وبدأوا يوزعون الشعير،
وصارح **السيِّد** رجاله جميعا بأنه يوَد الرحيل ليلا،
فقبل تابعوه الطيبون راضين ومخلصين،
وكل ما يأمرهم به سيِّدهم جميعا يطيعونه،
وعندما انتشر الليل بدأوا يرحلون،
لأن سِيدى حريص على ألا يكتشفوه أو يحسّوا به»
وقد ساروا طوال الليل دون أن يتوقفوا لحظة،
فبلغوا موضعاً يقال له قسطلون دى هنارس،
وعنده تهيأ سِيدى والذين معه ليعدوا كمينا.

٢٣

خطة هجوم - قسطلون تسقط فى يد السيد فجأة - الإغارة على القلعة

أمضى سِيدى **القنبيطور** كل الليل فى الكمين،
عملا بنصائح **ألبار هانييث دى مينايا :**
«يا سِيد، يا من تمنطقت سيفك فى ساعة طيبة!،

ونحن نعدّ الكمين لقسطلون،
تبقى أنت مع مائة من رجال حملتك
وراء الجميع، مختفين تحرسون المؤخرة،
وتعطونى مائتين لكى أذهب بهم فى المقدّمة،
ومعنا الله، وحظك، سنربح غنائم طائلة».
فرد **القنبيطور**: «صواب ما قلت ياميناليا،
أنت، مع مائتين، تذهب للإغارة،
ويصحبك **ألبار ألبارث**، و **ألبارسالفادورث** فارس نبيل
ومعكم **جالين غرسية** النبّال الجرىء.
فرسان ممتازون أولئكم الذين رافقوا مينايا.
اهجموا فى جرأة ولا تتركوا وراءكم شيئا خائفين.
اذهبْ من ناحية «هيتا»، ومن تحت مارًّا بوادى الحجارة،
حتى تبلغ طليعةُ الحملة مدينةَ القلعة،
واحملوا معكم بعناية كل الغنائم،
ولا تتركوا وراءكم شيئا خائفين من المسلمين،
وأنا مع المائة فارس سأبقى هنا فى المؤخرة،
مدافعا فى قسطلون، لأنى أتوقع خديعة كبيرة،
وإذا تعرضت المقدمة لأى خطر،
أرسلْ إلى عاجلا فى المؤخرة،
والمساعدة التى سأقدمها لكم سوف تتحدث عنها كل إسبانيا».
نودى الذين عليهم أن يذهبوا للإغارة،
والذين سيبقون مع سِيدى فى المؤخرة.

obeikandl.com

وانهزم الفجر، وأقبل الصباح،
ثم أشرقت الشمس. يا إلهى.. كم هو رائع تفتح الحياة!
نهض الجميع فى قسطلون،
فتحوا الأبواب وأخذوا طريقهم إلى خارج المدينة،
لكى يباشروا أعمالهم، ويُعنوا بمزارعهم،
خرجوا جميعاً، وتركوا أبوابهم مفتوحة،
وقلة من الناس بقيتْ فى قسطلون،
أما الذين خرجوا فانتشروا فى كل جانب،
حيث ترك القنبيطور الكمين،
وأسرع، دون تأخير، إلى قسطلون ليحاصرها،
ويأسر كل المسلمين والمسلمات،
ويغنم القطعان التى ترعى حول المدينة،
فاقترب سيدى **دون لذريق** من أبوابها،
والذين كانوا حرّاساً عليها عندما رأوا تدفق الجنود،
امتلأوا رعبا وتركوا المدينة هاربين،
فاجتاز سيدى **رُوى دياث** أبوابها:
شاهراً سيفه، عاريا فى يده،
وقتل ممن أدركهم خمسة عشر مسلما،
وربح قسطلون، وما فيها من ذهب وفضة،
وجاء رجاله بالغنائم محملين،
فتركوها بين يدى سيدى، دون أن يهتموا بما تساويه.
بينما المائتان وثلاث ممن هم فى المقدمة،

obeikandl.com

يطوفون الأرض وينهبون كل ما عليها،
وحتى مدينة القلعة وصلت راية **مينايا**،
ومنها عادوا محملين بالغنائم،
عبروا «هنارس»، من فوقها، مارين بوادى الحجارة،
ومن هناك جاءوا بغنائم كثيرة لا تحصى،
قطعان عديدة من الغنم والبقر،
ومن الثياب الغالية، وثروات أخرى هائلة،
ويميناً حيث مرت راية **مينايا**،
لم يجرؤ مخلوق على أن يهاجمهم من الخلف،
ومع الغنائم التى جنوها عادت الحملة،
متوجهة إلى قطسلون حيث كان **القنبيطور**،
فترك **القنبيطور** الحصن محروساً فى أمان،
وخرج للقاء رجاله على رأس مؤخرته،
وبأذرع مفتوحة استقبل **مينايا**:
«وصلت؟.. يا **ألبارهانييث**، يا صاحب النبال الجريئة،
عندما أرسلتكم إلى المعركة وضعت فيكم كل أملى،
والآن، فلنجمع معا كل الأرباح، وكل الغنائم، ما معكم وما معى،
وسوف أعطيك خمسها، إذا أردت يا **مينايا**».

٢٤

مينايا لا يقبل أى نصيب من الغنائم ويدعو للسيد شاكراً علانية

«من قلبى أشكركم، أيها **القنبيطور** المعدود!

الخمس الذى أمرت بأن يدفع إلىّ،
يبق لكم لكى تدفع منه لألفونسو القشتالى ما تريد،
لن آخذ نصيبى، وها أنذا أرده لكم، وعندكم يبق،
عليه عاهدت الله، ذلك الذى فى الأعالى،
حتى أحقق رغائبى فوق جوادى الأصيل،
محاربا المسلمين فى الحقول،
مستخدما النبال، وشاهراً سيفى فى يدى،
وعلى كوعى يتدفق الدم حاراً وملتهبا،
أمام **رَوِى دياث** المقاتل المعدود،
إنى أرفض أن تدفع لى مالا لا أستحقه وما توقعته،
ومن الآن إذا غنمت أشياء غالية الثمن فسأبقى مع نصيبى.
أما غنائم اليوم، فهى بين أيديكم، كلها لكم».

٢٥

السيد يبيع خمسه للمسلمين - ولا يريد صراعا مع الملك ألفونسو

كل الغنائم كانت مكوّمة هناك.
وفكرّ **السيِّد**، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة:
إن الملك **ألفونسو** قد يجىء مع جيشه،
ليبحث عنه، وليهاجمه مع كل أتباعه.
فأمر السيِّد رجاله بتوزيع الغنائم كاملة بأسرع ما يستطيعون،
وخمسه من الغنائم كقائد يقيدونه فى سجل،
وأن يأخذ الفرسان سهمهم المقدّر، وما أكثره!

مئة مارك من الفضة لكل واحد،
وأن يأخذ الراجل نصف ما يأخذ الفارس، بلا نقص أو زيادة،
وبقى الخمس لسيدى كاملا،
لا يستطيع أن يبيعه، وليس هناك من يُهدى إليه،
ولا يَودّ أن تعود حملته بأسرى أو أسيرات.
فحادثَ أهل قسطلون، وأرسل يسأل فى هيتا ووادى الحجارة،
ومهما يكن السعر الذى يدفعونه فستكون أرباحهم عالية.
إذا رغبوا فى شراء خمسه، فكم يدفعون له ثمنا؟
دفع له المسلمون أكثر من ثلاثة آلاف مارك من الفضة،
فقبل سيدى ذلك العرض وسُرّ به كثيراً،
وفى اليوم الثالث سلّموه المبلغ كاملا بلا نقصان.
حينئذ فكرّ سيدى وكل رجال حملته،
فى أن الحصن ضاق بهم فلم يعد يتسع لهم جميعا،
على أى حال لقد استولى عليه رغم أنهم قطعوا عنه الماء،
«والمسلمون فى سلام، فقد أمضوا معه الاتفاق،
والملك **ألفونسو** يمكن أن يجىء على رأس جيشه،
ولهذا أريد أن أغادر قسطلون، اسمعونى جميعاً، وأنت **يا مينايا!**».

٢٦

السيد يتجه نحو أرض سرقسطة، وهى فى حوزة ملك بلنسية المسلم

ما أقوله لكم لا تأخذوه أبدا مأخذا سيئا،

تعرفون أننا فى قسطلون لا نستطيع الإقامة،
لأن الملك **ألفونسو** قريب منا، ويبحث عنا،
كذلك لا أريد تدمير الحصن،
وسأطلق سراح المائة مسلم والمائة مسلمة الذين معنا،
حتى لا يتحدثوا عنى بسوء، رغم أننى استوليت على ثرواتهم،
وقد دفعت لكل واحد منكم نصيبه؛ ولم يتخلف أحد،
وغدا صباحا نفكر فى الرحيل؛
فمع ألفونسو، سيدى، لا أريد خصاما.
من الحصن الذى استولوا عليه رحلوا جميعا أغنياء،
وحياهم عند الرحيل المسلمون والمسلمات،
ومن فوق اتجهوا إلى هنارس، يغذون السير ما استطاعوا،
اجتازوا مدينة القرية عابرين، ومضوا بلا توقف،
وخلّفوا وراءهم كهوف أنكيتا،
ثم خاضوا المياه ودخلوا سهول تارانث،
وخلالها تقدمت القافلة ما استطاعت السير،
وألقى سِيدى رحاله بين أريثا وثِينا،
وانتزعوا غنائم وافرة من كل أرض عبروها،
ولم يدرك المسلمون مدى فداحة الجرأة التى تتحرك بينهم،
وفى اليوم التالى تحرك سِيدى دى بيبار،
فجاز الحامة وعبر هوث،
ومر بقرية بوبيركا مخلفا وراءه أتيكا؛
ثم استراح سِيدى على مشارف القُصير،

obeikandl.com

فوق تل مدوّر، قوى ومرتفع،
هناك يعسر أن يُحصر عنهم الماء،
فقريبا منهم يجرى نهر شَلون،
وسيدى **دون لذريق** يأمل أن يستولى على القصير.

٢٧

السيد يعسكر على مشارف القصير

عَسْكر رجاله على التلّ، وأخذوا يُعدوُّن خيامهم،
بعض الخيام على سفح الجبل، وبعضها الآخر قريبا من الماء،
والقنبيطور الطيب، من تمنطق سيفه فى لحظة سعد،
حول الهضبة تارة، وإلى جانب النهر تارة أخرى،
يأمر رجاله جميعا أن يحفروا الخنادق،
وما من أحد يجرؤ على الهجوم، ليلا أو نهارا،
لأنهم يعرفون أن سيدى هناك مقيم.

٢٨

خوف المسلمين

عَبْر كلّ الأرض انتشر الخبر:
إن **القنبيطور** سيدى قد عسكر هناك،
ترك المسيحيين وجاء ليعيش مع المسلمين،
وجيرانه لا يجرءون، خوفا منه، على العمل فى المزارع القريبة،
كان سيدى مبتهجا، وكذلك كل تابعيه،
لأن سكان حصن القُصير سيدفعون له الجزية عما قريب.

٢٩

القنبيطور يستولى على القصير خدعة

دفع سكان القصير لسيدى الجزية،
ومثلهم أهل مدينتى أتيكا وتيرير،
وعرف الذين فى قلعة أيوب أن ذلك مصيرهم،
لقد جاء سيدى وألقى رحاله هنا منذ خمسة عشر أسبوعا، وعندما رأى السَّيد
أن القصير لن تستسلم،
ابتدع خدعة حربية جديدة ولم يتردد فى استخدامها :
ترك فى المعسكر خيمة واحدة قائمة وأمر فطُويت الخيامُ الأخرى،
واتجه هابطا نحو نهر شلون، ناشراً رايته،
ارْتَدَوا الدروع السابغة، والسيوف فى أغمادها،
وبهذه الخدعة الذكية سيجعلهم يقعون فى المصيدة،
وجاء أهل القصير وقد رأوهم يرحلون، يا إلهى... كم هم فرحون!.
«لقد نفد خبز سيدى وشعيره،
وبجهد استطاع أن يحمل خيامه، وبقيت له واحدة منصوبة،
لقد أسرع سيدى راحلا، كهارب من هزيمة،
فلنثب عليه الآن، ومع الهجوم سنربح غنائم وفيرة،
قبل أن يسبقنا إليها سكان تيرير من الخلف،
لأن هؤلاء إذا هزموه لن يعطونا من الغنائم نصيباً،
لقد واتت الفرصة لنسترد الجزية التى دفعناها له مضاعفة».
خرج أهل القصير من الحصن، واندفعوا نحوه بأسرع ما يستطيعون،

وعندما تبينهم سيدى من بعيد تظاهر بالهرب،
واتجه هابطا يقود رفاقه نحو نهر شلون،
وقال أهل القصير: «سوف تفلت منّا الغنائم!.
فتقدم الرجال والصبيان مسرعين،

نهمين إلى الغنائم لا يفكرون فيما عداها،
تاركين أبوابهم مفتوحة لا يقوم على حراستها مخلوق،
تلفّت **القنبيطور** الطيب خلفه،
فرأى أن بينهم وبين الحصن مسافة شاسعة،
فأمر برفع الراية، ثم غمزوا جيادهم مسرعين:
«إليهم أيها الرجال.. اطعنوهم جميعاً، أطعنوهم بلا خوف
وبفضل الخالق ستكون الغنائم من نصيبنا».

وعادوا مسرعين فالتقوا بهم فى بطن الوادى،
ياإلهى، أيّة بهجة غامرة لفتهم ذلك الصباح!
سيدى و ألبار هانييث كانا فى الطليعة،
على جوادين كريمين يدفعان بهما إلى حيث يريدان،
وسريعا حالوا بين المسلمين وبين الحصن، ثم دخلوه.
وأتباع سيدى انقضّوا عليهم يهاجمونهم بلا رحمة،
فقتلوا فى قليل ثلاث مائة مسلم.

حينئذ خرج المختفون فى الخندق، وبأصوات عالية أخذوا يصيحون،
ثم تقدمّوا نحو الحصن وأحاطوا به مسرعين،
وعلى أبوابه، شاهرين السيوف، راحوا يتدافعون،

obeikandl.com

ولحق بهم رفاقهم عجلين فقد بلغوا النصر الذى يريدون،
وبهذه الخدعة استولى سِيدى على القُصَيْر.

٣٠

راية السيد تخفق فوق القصير

جاء **بدرو برمودث** حامل الراية يلوِّح بها فى يده،
وعلى قمة الحصن رفعها من أعلى مكان فيه.
وتكلم سِيدى **رُوى دياث**، من وُلِد فى ساعة طيبة:
«شكراً لَكَ ياإله السَّماء، ولكل القدّيسين،
لقد تحسنت إقامتنا، للخيل وللفرسان».

٣١

رحمة السيد بالمسلمين

اسمعْنى يا **ألبار هانييث**، وكلَّ الرجال،
لقد ربحنا كثيرا باستيلائنا على هذا الحصن،
فالمسلمون يرقدون موتى، وأرى قليلين منهم على قيد الحياة!،
وليس بوسعنا أن نبيع الأسرى من المسلمين والمسلمات،
ولن نجنى من وراء قطع رءوسهم شيئاً،
إذن فليبقوا معنا داخل الحصن، وقد أصبحنا سادته،
نحن نقيم فى بيوتهم، وهم على خدمتنا يقومون.

٣٢

ملك بلنسية يحاول أن يسترد القصير
فيرسل جيشا لمحاربة السيد

استولى سيدى على حصن القصير، ومع الغنائم التى ربحها بقى فيه،
وأرسل فى إحضار الخيمة التى تُركت منصوبة هناك.
لقد آلم انتصاره سكان أتيكا، ولم يكن أهل تيرير بأقل ألما،
وحزن أهل قلعة أيوب لا نتصار رجل بيبار،
فأرسلوا إلى ملك بلنسية يقولون :
« إن رجلا يُدعى **السِّيد رُوِى دياث دِى بيبار.**
اختلف مع الملك **ألفونسو** فأخرجه من أراضيه،
جاء فعسْكَرَ من القصير فى مكان جيّد التحصين،
ثم نصب كميناً لسكانه، فأخرجهم من ديارهم، وبعدها استولى على الحصن.
وبدون مساعدة منك سوف نفقد أتيكا وتيرير،
وقلعة أيوب ستلحق بهما، ولن تفلت من هذا المصير،
والحالة من سيئ إلى أسوأ على شاطئ نهر شلون،
والشىء نفسه حدث لشلوقة على الضفة الأخرى ».
ولم يكد الملك **تميم** يسمع ذلك حتى أحس بحزن عميق :
« أرى ثلاثة ملوك مسلمين حولى يقيمون،
اثنان منكم يذهبان إليهم الآن بلا تأخير،
فسوف يمدّونكم بثلاثة آلاف مسلم مسلحين، وللقتال مهيئين،
ومعهم حرَّاس الحدود سيهرعون لعونكم مع أول نداء،

خذوا **السِّيد** حيًّا، وأحضروه أمامى،
لقد دخل أرضى، وعليه أن يدفع الجزية لى».
ثلاثة آلاف مسلم تحرّكوا فى شوق إلى الهجوم،
وعندما هبط عليهم الليل فى شيقورب حَطّوا الرحال نازلين،
وفى صبيحة اليوم التالى أغذّوا السير مسرعين،
حتى إذا لفهم الظلام نزلوا فى «ثيلا» مستريحين،
ثم طيَّروا الخبر لسكان الحدود،
فلم يتأخر أحد منهم، وأخذوا من كل حدب وصوب يتوافدون،
من ثيلا جاء الذين كان يُطلق عليهم أهل ثيلا القناة،
أجهدوا الخيل طوال اليوم، فلم يتوقفوا لحظة واحدة،
وعندما أدركهم الليل فى قلعة أيوب ألقوا عصا التَّسْيار مطمئنين.

٣٣

حارث وغالب يحاصران السِّيد فى القُصَيْر

نصبوا الخيام وعسكروا مطمئنين،
ثم توالت الإمدادات وتضخمت الجيوش،
وكل الطلائع التى بعث بها المسلمون،
مدجَّجة بالسلاح لا تكف عن الحركة ليلَ نهارْ،
كثيرون هؤلاء الحرّاس، وكانت المحلة ضخمة،
ولمّا قطعوا الماء عن سيدى وأتباعه تعجَّل جيشه المعركة،
فصدَّهم عنها بجزم من وُلِدَ فى لحظة سعد،
وهكذا عانوا من الحصار على امتداد ثلاثة أسابيع.

٣٤

السيِّد يشاور رجاله - استعدادات سرِيّة - السيِّد يخرج إلى المعركة الفاصلة ضد حارث وغالب - بدرو برمودث يوجه الضربات الأولى

انتهت الأسابيع الثلاثة وفى مطلع الرابع،
دعا سيدى رجاله مُشاوِراً، ليصل إلى اتفاق :
«لقد قطعوا عنا الماء وغداً ينفد منا الطعام،
وإذا أردنا الخروج ليلا فلن يتيحوا لنا الفرصة
إنهم أشداء أقوياء فلا قدرة لنا على نزالهم،
أشيروا علىّ أيها الرجال بما تفضلون أن تفعلوه».
فتكلم **مينايا** أولا، رجل شديد الولاء :
«من قشتالة اللطيفة جئنا إلى هنا،
فإذا لم نكافح ضد المسلمين لم نكسب لقمة العيش،
ونحن ست مائة رجل وربما أزيد قليلا،
وباسم الخالق ليس أمامنا من طريق آخر،
غير بدء الهجوم عند انهزام الفجر».
فردّ **القنبيطور** «لقد صادف حديثك هوى فى نفسى،
حديث شرفت به يا **مينايا**، وماتوقعت منك غيره،
إنى آمركم بإجلاء كل المسلمين والمسلمات،
حتى لا يعرف أحدٌ منهم ماذا نعد لهم فى السرّ من شباك!».
بينما انصرفت بقية الجيش، ليلا نهاراً، لإعداد السلاح،

وصباحاً، فى اليوم التالى، والشمس على وَشْك الشروق،
تسلّح سيدى وكل الذين كانوا معه.
وتحدّث **القنبيطور** بما ساحكيه لكم :
« نخرج جميعاً، فلا يبق منّا أحد، لاأستثنى من ذلك مخلوقاً،
غير راجلَين فحسب يقومان على حراسة الباب،
فإذا لقينا مصرعنا فى ساحة الحرب فليدفنونا فى الحصن،
وإذا انتصرنا فى المعركة تضخمت ثرواتنا،
وأنت **يابدرو برمودث** : خذ رايتى،
لأنك تابع وفىّ وستحافظ عليها بإخلاص،
ولكنكم لن تتقدموا معه حتى آمركم ».
فقبّل **مينايا** يد **السيّد**، وتسلّم الراية،
وفُتحتْ الأبواب فخرجوا جميعاً، دفعة واحدة،
حينئذ رأتهم عيون المسلمين فعادوا إلى محلتهم منبئين؛
يا لهم من مسرعين هؤلاء المسلمين وهم يمتشقون السلاح من جديد،
ثم ارتجتَ الأرض أمام ضجيج الطبول.
انظر إلى المسلمين يتسلّحون مسرعين، ويتجمعّون صفوفاً،
وفى مقدمتهم جميعاً تخفق رايتان رئيسيتان،
ورايات أخرى كثيرة مختلطة، من يستطيع أن يعدها ؟
إن جيوش المسلمين تتحرّك متقدّمة،
تريد أن تقضى على سيدى وتابعيه :
- اثبتوا فى أماكنكم أيها الرجال،
حذار أن يفارق أحدكم الجميع حتى آمركم ».

ولكن **بدرو برمودث** لم يستطع صبرا،
رايته فى يده، بدأ يتقدم ملوِّحاً :
«ليحرسك الخالق، سيدى **القنبيطور** الوفى،
سوف أثبِّت رايتنا عند أكثر جنود المسلمين عدداً،
والذين يجب عليهم أن يصمدوا دونها سترى كيف يفعلون».
فصاح **القنبيطور** : «لا تفعله بحق الله».
فردّ بدرو برمودث : «لم تعد هناك وسيلة أخرى!».
ثم همز جواده، وألقى بنفسه بين أكبر الصفوف عدداً،
فتلقّاه المسلمون يريدون انتزاع الراية منه،
وصوّبوا إليه ضربات قاصمة، لكنهم لم يستطيعوا أن يغلبوه،
حينئذ صاح **السيِّد** فى رجاله : «اذهبوا إليه، ساعدوه بحق الله!».

٣٥

أتباع السيد يذهبون لمساعدة بدرو برمودث

رفعوا شعاراتهم أمام قلوبهم،
وجعلوا نبالهم ملفوفة فى أعلامهم».
وانحنوا بوجوههم على سروجهم،
يودون أن يلقوهم بقلوب مطمئنة،
وبصوت عال نادى من وُلِدَ فى ساعة طيبة :
«إليهم، أيها الفرسان، حُبّاً فى الخالق!
أنا رُوِى دِياث، السيِّد.. من بيبار... القنبيطور».
فارتمَوْا كلهّم على الجماعة التى يقاتلها **بدرو برمودث،**

وكانوا ثلاث مائة نبّال، جميعاً مع راياتهم،
فقتل كل واحد مسلماً، كل واحد قتل واحداً فى هجمة واحدة.
وعندما عاودوا الهجوم مات آخرون كثيرون ».

٣٦

تدمير مزارع الأعداء

نِبال كثيرة وعديدة تعلو وتهبط،
وسهام كثيرة محطمة دون أقواسها،
وأعلام عديدة بيضاء احمرّ لونها من الدم،
وجياد كثيرة كريمة، دون فرسانها ولّتْ هاربة ».
المسلمون ينادون **محمداً**، والمسيحيون يدعون **القديس يعقوب**،
وفى الوادى، فى مكان ضيق، كانوا يرقدون،
ألف وثلاث مائة مسلم موتى!

٣٧

التنويه بالفرسان المسيحيين البارزين

ياله من مناضل عنيد فوق سرجه الذهبى،
سيدى **رُوى دِياث**، المقاتل الشجاع،
وَمِينايا ألبار هانييث، وكان القائد فى نُورِينا،
وأيضاً **مارتين أنتولينييث**، ذلك البُرغُشىّ الوفى،
ومُونيو جُوستيوث ربيب القنبيطور،
ومَرْتين مُونييث وكان القائد فى مُونتِ مايور،

ثم **ألبْار ألبْارُوث، وألبار سلفا دُورث،**
ومعهم **جَالين غرسِية**، القادم من أرَجُون،
وفيلكس مُونيوث ابن لخ القنبيطور،
وكلّ الذين كانوا هناك، وَمنْ تقدسوا جميعاً،
لإنقاذ الراية، والسّيد القنبيطور.

٣٨

مينايا فى خطر - السيد يُخرج حارثا

صرّعوا حِصَانَ **مينايا ألبْار هانييث**،
فهرعت الجيوش المسيحية لمساعدته،
نفدت نباله فانتضى سيفه وأخذ يقاتل،
وراجلا يصارع، وجه إليهم ضربات قاصمة،
ورآه سيدى **روى دياث** القشتالى،
فاقترب من الوزير، وكان على جواد كريم،
وبضربة سيف قاصمة من يده اليمنى،
شقّه من وسطه، ورمى بنصفه أرضاً،
وأعطى فرسه **لمينايا ألبار هانييث :**
« **اركبه يا مينايا**، فأنت ساعدى الأيمن،
وقدمت لى فى هذا اليوم عوناً كبيراً،
مازال المسلمون ثابتين، وفى ساحة المعركة يقاتلون،
وواجبنا أن نأتى عليهم جميعاً ».
امتطى مينايا جواده، ثم شهر سيفه،

ورمى بنفسه وسط الجموع يقاتل بعنف،
ومن يلقه من الأعداء يصرعه فى ضربة واحدة،
وسيدى، **روِى دياث**، من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
اقترب من الملك **حارث**، ورماه بثلاث طعنات،
أخطأه فى اثنتين؛ وأصابته الثالثة فتدفق منه الدم غزيراً؛
ثم استرد عنان فرسه يريد تَرْك المعركة.
وبهذه الضربة الحاسمة هزم الجيش.

٣٩

غالب جريح، والمسلمون مهزومون

وجَّه **مَارتين أنتولينْيث** ضربة قاصمة إلى غالب،
فألقى بزينة خوذته بعيداً؛
ثم شقها نصفين حتى بلغ اللحم،
وعرف أن **غالباً** لن يقاوم الضربة الأخرى،
وهكذا خسر الملكان **حارث وغالب** المعركة،
يا له من يوم رائع فى تاريخ المسيحية!،
لقد هرب المسلمون هنا وهناك،
ولم يتردّد أتباع سِيدى فى لحاقهم،
فلجأ الملك **حارث** إلى تِيرير،
وحالوا دون **غالب** فلم يبلغها،
فاستطاع أن يذهب إلى قلعة أيوب،
فلاحقه **القنبيطور** من قريب،
وظل يلاحقه حتى بلغ أسوار المدينة.

٤٠

مينايا يرى دعاءه وقد تحقق - غنائم المعركة
السيد يهيئ هدية للملك

كان جواد **مينايا ألبّار هانّييث** مباركاً عليه،
فاستطاع أن يقتل من المسلمين أربعة وثلاثين،
سيفه القاطع أغرق ساعديه فى الدم،
ومن كوعه راح يقطر أحمر متوهجاً.
وقال **مينايا** : « الآن أخذت بحق،
ونستطيع أن نرسل إلى قشتالة هدايا غالية،
من التى غنمها سِيدى **رُوِى دِياث** مقاتلا فى المعركة،
كثيرون من المسلمين يرقدون موتى، وقليلون تركوهم أحياء،
والذين نَجوْا وراءهمَ منْ يلاحقهم،
ثم عَادَ أتباع مَنْ وُلِدَ فى ساعة طيبة،
وكان **القنبيطور** ممتطياً صهوة جواده الكريم،
وقد لفَّ رأسه بكوفية، يا إلهى.. كم هو وقور اللحية!
وتدلت الكوفية على كتفيه، بينما السيف فى يده،
ورأى أتباعه كيف يلتفون حوله :
« شكراً لله، ذلك الذى فى الأعالى،
دون قتلَى كثيرين منّا انتصرنا فى المعركة ».
وانصرف أتباع سِيدى إلى المعسكر ينهبون :
الرايات والسلاح، وأشياء أخرى كثيرة وغالية،

obeikandl.com

وكلّ ما توصلوا إليه مما يخص الموريسكيين[١]،
فكان من بينها مائة وعشرة من الخيل الجياد.
وعمّت بهجة غامرة بين هؤلاء المسيحيين،
عندما تبينوا أنهم لم يخسروا غير خمسة عشر قتيلا،
وغنموا من الذهب والفضة ما حاروا معه أين يحفظون.
وأتخموا بالثروة جميعا، هؤلاء المسيحيون،
من تلك الغنائم الهائلة التى أصابوها،
وردوا المسلمين إلى حصنهم، وكانوا قد أخرجوهم منه.
وأمر سيدى بأن يقدم لهم من الزاد شيئاً.
كانت بهجة سيدى وكل أتباعه غامرة.
فأمر بتوزيع الأموال والثروات التى غنموها،
وكان من بين ما وقع له فى خُمسه مائة حصان،
يا إلهى... كم كان كثيراً ما دفعه لكل واحد من تابعيه،
سواء أكان من الفرسان أو الراجلين!.
لقد عوضهم خيراً من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
كل الذين جاءوا معه، وهم كثيرون قبضوا، وباتوا مبتهجين.
- «اسمع **يا ميغايا**، أنت ساعدى الأيمن!،
ومن هذه الثروات التى وهبنا الخالق،
وهى كثيرة، خذ بيدك منها ما تريد،

---

(١) كلمة Moriscos يقصد بها فى الوثائق الإسبانية أولئك المسلمون الذين تخلفوا فى الأندلس بعد سقوطها فى يد الكاثوليك، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية. ويقصد بها هنا المسلمون، وقد آثرت استخدام اللفظ الإسبانى دون معناه المقصود، لأن الملحمة، فيما أعرف، أقدم نص بين أيدينا يستخدمه مما يعين الدارسين على تأريخ الكلمة، وتتبع تطورها ومراحل استخدامها.

إنى أودّ أن أبعث بك إلى قشتالة رسولا،
لتقول لمَنْ هناك إنّ النصر كان حليفنا،
وإلى الملك **ألفونسو** الذى نفانى،
تحمل له منى هدية... ثلاثين جواداً كريماً،
من غنائم هذه المعركة التى ربحناها،
كلها مسرجة وذات شكائم ممتازة،
ومع كل جواد سيف معلق فى سرجه».
فقال **مينايا ألبار هانييث:**
«ذلك شيء يسرّنى أن أفعله!».

٤١

السيد يوفى بنذره لكتدرائية برغش

ها بين يدّيك ذهب وفضة خالصان،
زِقٌّ مملوء حتى آخره لا ينقصه شيء،
وفى كنيسة مريم المقدسة فى برغش سوف أصلّى ألف قدّاس،
ومازاد يبقى لزوجى وبنتىّ،
اللائى أمضين الليل والنهار مصليات من أجلى،
ولئن عشت فسوف يصرن سيدات ثريات.

٤٢

مينايا يرحل إلى قشتالة

كان **مِينايا ألبار هانييث** بالغ السرور من سفارته،

والرجال الذاهبون معه اختيروا بعناية،
وهم الآن يقدمون الشعير للخيل، فقد دخل الليل،
واجتمع سيدى **رُوى دياث** مع أتباعه يتشاورون.

٤٣

الـوداع

«أذاهب أنت، يا **مينايا**، إلى قشتالة العظيمة ؟!
تستطيع مُحقا أنْ تقول لأصدقائنا:
لقد ساعدنا الله وانتصرنا فى كفاحنا،
وعندما تعود قد تجدنا هنا،
فإذا افتقدتنا فالحق بنا حيث يقولون لك اتجهنا،
بالرماح وبالسيوف علينا أن نربح الحياة!،
وبدونها، فى هذه الأرض المجدبة، لا يمكن أن نعيش،
كم أنا شديد الخوف!، ومن ثَم علينا أن نسرع راحلين!».

٤٤

السيد يبيع القصر للمسلمين

وكما اتفقوا. فى الصباح المبكر رحل **مينايا**،
وبقى القنبيطور حيث هو كان، ومعه بقى الجيش.
والأرض التى حولهم، ومنها يعيشون، قاحلة وفقيرة،
وعلى سيدى يتجسس كل يوم
مسلمو الحدود، ومخلوقات أخرى غريبة،

لقد استرد الملك **حارث** عافيته، ومعه يستعد لخدعة ما
سكّان أتيكا، وأهل تيرير، وهما قريتان متجاورتان،
ومعهم قطّان قلعة أيوب، مدينة أكثر ثراء وبسطة.
وأعد السيِّد اتفاقا، وحرره فى رسالة :
إنى أبيع لكم القصير بثلاثة آلاف مارك من الفضة.

٤٥

يبيع القصير (إعادة)

سيدى **رُوى دياث** باع القصير،
ما أكثر ما دفع حينئذ لتابعيه أنفسهم !،
الفرسان والرجالة، كلاهما فى الحقيقة، أصبحوا أثرياء،
لم يبق بينهم جميعاً فرد واحد مسكين،
« ومنَ يخدم سيدا صالحا يعش أبداً سعيدا ».

٤٦

الرحيل عن القُصير - السيد يتفاءل بزجر الطير- السيِّد ينزل فى قرية بويو، فوق منت ريال.

عندما أراد سيدى أن يرحل عن الحصن،
أخذ المسلمون والمسلمات يشكون :
« أذاهب أنت، يا سيدى، إذن تذهب معك صلواتنا، تسبقك !
لقد كنت معنا كريما ونبيلا ونحن لك من الشاكرين ».
وعندما غادر القصير سيدى، **ابن بيبار**،

أجهش المسلمون والمسلمات بكاء،
ورايته ترفرف فوق رأسه، ابتعد **القنبيطور** ذاهبا،
مرّ بأسفل نهر شلون، وتابع سيره دون أن يستريح،
وعندما عبر النهر اعترضته طيور كثيرة مبشّرة،
وسُرّ سكان تيرير، وفى قلعة أيوب كانوا أكثر سعادة،
وتألم أهل القصير كثيراً، فقد كان السيد لهم وفيّاً.
همز سيدى جواده ومضى بلا توقف،
حتى وصل قرية بويو وهى فوق مدينة منت ريال،
كانت الهضبة مرتفعة، وذات مناظر خلابة،
وليس بوسع العدو أن يبلغها من أى جانب،
ثم فرض على أهل دروقة جزية كبيرة،
وأخضع سكان مولينا وكانوا على الجانب الآخر للنهر،
وجاء الدور على التيرويل، وكانت أبعد قليلا،
وأصبحت مدينة «سلفا القناة» فى قبضة يديه.

٤٧

مينايا فى حضرة الملك - الملك يعفو عن مينايا ولكنه يرفض العفو عن السيد

سيدى **رُوى دياث** المحفوظ برعاية الله!.
ألبار هانييث مينايا رحل إلى قشتالة،
وقدم إلى الملك ثلاثين حصانا من كرام الخيل،
وعندما رآها الملك سُرّ بها، وغمرته ابتسامة حلوة:
«من الذى أعطاك هذه، يا **مينايا**، يغفر الله لك!».

- « إنه سيدى **رُوى دياث**، من فى ساعة طيبة تمنطق سيفه،
ذلك الذى نفيتَه بخدعة ربح القصير،
وعلم ملك بلنسية بأمره، من رسالة سريعة جاءته،
فأمر بحصاره وأن يقطعوا عنه الماء.
فخرج سيدى من الحصن وأخذ يناضل فى الميدان،
وانتصر على ملكين مسلمين فى هذه المعركة،
وربح سيدى حينئذ غنائم طائلة،
وإليك أيها الملك الشريف يرسل هذه الهدايا،
مقبِّلا قدميك، ويديك كليهما،
طالبا منك بحق الخالق أن تصنع فيه معروفا ».
فرد الملك : « ذلك سابق لأوانه جدًّا،
المنفىّ فقد رضا الملك،
ولمَّا يمض على نَفْيه بَعْدُ غيرُ بضعة أسابيع،
ولكنى سأقبل هذه الهدَايا التى انتزعها من المسلمين،
ولقد سرّنى أن يحقق السيِّد هذه الغنائم الكبيرة،
ولكن الآن، وقبل أىِّ شىء، عفوْتُ عنك أنتَ يا **ميناياء**،
وسنُرد لك ألقابك وضياعك كاملة بلا نقصان،
وتستطيع أن ترحل، وأن تعود، لأن عفوى أصبح نافذا،
ولكن لا أريد أن أقول لكم الآن شيئا عن **القنبيطور** ».

٤٨

الملك يسمح للقشتاليين بأن يذهبوا مع السيد

وفوق كل ما قلتُ، أودّ أن أضيف لكم شيئا يا **ألبار هانيييث** :

«كل الذين يرغبون فى الذهاب، ومن كل مملكتى،
من الشجعان الطيبين، ليساعدوا **السيِّد**،
أذنتُ لهم، ولن تصادر لهذا السبب أراضيهم».
فقبّل **مينايا ألبار هانييث** يد الملك:
«شاكر ومقدِّر أيها الملك، فأنت سيّدى الشرعى!،
ذلك ما وافقتَ عليه الآن، وغدا توافق على المزيد،
وبفضل الله سنكون معك، إلى جانبك بكل عزيمتنا».
فردّ الملك: «لندع الحديث عن هذا يا **مينايا**،
امض عَبْر قشتالة بكل حرية، ولا تخش شيئا،
اذهب إلى سيدى وانضم إليه، ولاتخش ضيقا ولا حرجا».

٤٩

غزوات السيِّد خلال إقامته فى بويو
مينايا مع مائة قشتالى ينضمون إلى السيّد

أريد أن أحدثّكم عمن تمنطق سيفه فى ساعة طيبة،
مَنْ وصل قرية بُويُو حيث عَسكَرَ مع رجاله،
وما عاش هنا فالمسلمون والمسيحيون
يطلقون عليها فى وثائقهم اسم بُويُو سيدى،
ومقيما فيها واصل غزواته عبر أراض كثيرة،
كل وادى نهر مارتين دفع له الجزية،
وحتى سرقسطة وصلت أخباره المثيرة،
فلم تقع من المسلمين موقع الرضا، وبطولاته أحزنتهم،

وهناك أقام سيدى خمسة عشر أسبوعا كاملة،
وعندما رأى **السيِّد** العاقل أن **مينايا** لَمّا يعد،
انسحب ليلا مع كلّ رجاله،
ترك بُويُو، وطوى جميع خيامه،
وبدون توقُّف مضى دون **لذريق** إلى ما بعد مدينة تِيرويل،
ولم يُلقِ **رُوِى دِياث** رحاله مستريحا إلا فى غابات تيبار،
وكل الأراضى التى تحرّكوا فوقها أشاعوا فيها الخراب والدمار،
وسرقسطة نفسها أرغمها على أن تدفع له الجزية»

وخلال هذه الأعمال مرّت ثلاثة أسابيع أخرى،
وعند نهايتها قدم **مينايا** من قشتالة،
ومعه مائتان من الفرسان، جميعهم يتمنطقون سيوفهم،
ومن المحال إحصاء الذين رافقوه من المشاة،
وعندما رأى سيدى **مينايا** يقترب،
همز جواده، ولم يكد يلقاه حتى تعانقا،
قبّله فى الفم ومن عينيه،
وحكى له **مينايا** كل ما حُدِّث، دون أن يخفى عنه شيئا،
وابتسم **القنبيطور** مبتهجا:
«شكرا لله، ولأسمائه الحسنى،
مادام اعتمادى عليك، فسيكون التوفيق رائدى، يامينايا»!

٥٠

فرحة المنفيين عندما تلقوا أخبار قشتالة

يا إلهى. كم كانت غامرة فرحةُ الذين كانوا مع **السيِّد**،

عندما علموا أن **ميناليا ألبار هانييث** قد قفل عائدا،
يحمل لهم جميعاً أخبار وتحيات إخوتهم وأقاربهم،
ورفيقاتهم أولئك اللائى خَلفوهن وراءهم.

٥١

بهجة السيد

يا إلهى... كم كان فَرحا صاحب اللحية الغزيرة!،
عندما عرف أن **ألبار هانييث** وَفَّى نذره بالألف صلاة،
وأنه يحمل له تحيات زوجه وابنتيه!،
يا إلهى... كم كان **السيد** سعيدا، وكم كانت غبطته غامرة:
- «يا **ألبار هانييث** مدَّ الله فى عمرك،
لأنت أعظم منا قدرا، وهكذا تُؤدى المهمات!».

٥٢

السَّيد يجتاح أراضى القنييش

ولم يتردد من وُلد فى لحظة سعيدة،
فى اختيار مائتى فارس اصطفاهم بنفسه،
وبهم قرر أن يغزو ليلا،
تاركا وراءه أراضى القنييش القاحلة،
وانتهب جيشه كل ما حولها،
وفى اليوم الثالث عاد إلى المكان الذى انطلق منه.

٥٣

حذر المسلمين

عَبْر كلِّ الأراضى طار الخبر، ومن ضيعة إلى أخرى،
فحزن كثيرا سكان وشقة ومنثون لهذه الهزيمة،
وعلى النقيض دفع أهالى سرقسطة الجزية غير ساخطين،
لأنهم لا يخشون ظلما من سيدى، **روى دياث.**

٥٤

السيد يغادر بويو - ويجتاح أراضى فى حماية كونت برشلونة

وبكل الغنائم الهائلة التى حصَّلها عاد إلى معسكره،
وجميعا كانوا فرحين بما أصابوا من ثروات طائلة،
فشكروا السَّيد، ثم شكروا كثيرا **ألبار هانيبيث،**
ولم يستطع القائد المتزن أن يكم ابتسامته :
« أيها الفرسان.. اسمعونى، يجب أن أقول لكم الحقيقة :
من لايغزو ويؤثر الإقامة الدائمة فى مكان واحد فلن يقبض راتبه،
عندما يشرق الفجر سوف نرحل من جديد،
هيّا، اطووا الخيام، وتقدمّوا، فقد أزفت ساعة الرحيل ».
وانطلق **السيد** حيث عسكر فى ميناء ألوقات،
ومن هناك غزا سيدى وشقة ومنت ألبان،
فى غزوة كبيرة دامت عشرة أيام،
وعَبْر كل الجهات شاع الخبر متواليا،
إنْ منفَّ قشتالة يثير فى الأفاق الرعب والدمار.

٥٥

تهديدات كونت برشلونة

عَبُر كل الجهات سارع الخبر.
وأخيراً بلغ مسامع **كونت برشلونة**.
أن **رُوِى دياث** انتهب أرضه كلها[١]،
فكان وقعُ الخبر عليه سيئاً، وإحساسه بالإهانة عميقاً.

٥٦

السيد يحاول عبثا تهدئة الكونت

ركب الغرور الكونت فردّ مزهواً :
«لقد ألحق بى سيدى، **دياث دى بيبار** أضرارا بالغة،
ولم يكن سلوكه بأفضل حالاً عندما كان فى بلاطى،
فبعد أن جرح حفيدى، تركه دون أن يُعنى به،
والآن يجتاح أرضاً فى حمايتى وتدفع لى الجزية،
أبداً ما تحديته ولا حجبت صداق عنه،
أما وقد آذانى، فأنا له أهل وندّ».
كانت جيوشه قوية، وسريعاً تجمّعت،
وجاءته جموع كثيرة تنضم إليه، من مسلمين ومسيحيين،

---

(١) تاريخياً لم تكن الأرض لكونت برشلونة، وإنما كانت أرض الحاجب المنذر ملك لاردة، وكا
فى تحالف مع الكونت، يدفع له الجزية، ويعيش فى حمايته، وهو ما ستشير إليه الملحمة صراحة
القصيدة التالية.

وجميعاً تحركوا للقاء سيدى؛ **ابن بيبار** المحمود.
وقطعوا فى مسيرتهم ليلتين وثلاثة أيام،
فأدركوا سيدى قريباً من غابات تيبار،
جاءوا فى حشودهم الجامعة، وبأيديهم مجرّدة تصوروا أنهم يقبضون
على سيدى دون **لذريق**، وكل ما جاء به من غنائم وفيرة،
وبينما كان **السيِّد** يهبط من الجبل، لينتشر عبْر الوادى،
جاءته رسالة تعلن : «لقد وصل الكونت دُون **رامون**».
وعندما عرف سيدى خبرها أرسل من يقول له :
«قل للكونت **رامون** ألا يخشى من جانبى شيئاً،
لن أسطو على أملاكه أبداً، فليدعنى أمضى فى سلام».
ولكن **الكونت** ردّ عليه : «إنك لم تقل الحقيقة،
وستدفع الآن غالياً ثمن كل ما أسأتَ إلىّ فى البعيد والقريب،
وسيعرف المنفىّ مع مَن.. عليه أن ينازل!».
وعاد الرسول يحمل الجواب، يحث جواده ليصل بأسرع ما يستطيع،
وعرف لحظتها سيدى، **ابن بيبار**.
أنّ طريقه الوحيد أنْ يخوض مع الكونت معركة فاصلة.

٥٧

السيد يخطب جنوده

«أيها الفرسان، أنقذوا غنائمكم!،
البسوا الدروعَ وأشهروا السيوف،
لأن الكونت دون **رامون** يريدنا أن نلقاه فى معركة.

وبصحبته خلق كثير من المسلمين والمسيحيين،
ولن يدعنا فى سلام إلا إذا واجهناه بالقوّة،
وحتى إذا رحلنا فسوف يلحقون بنا، وإذا فلتكن المعركة هنا،
اهمزوا خيلكم، وهيئوا سلاحكم،
فهم قادمون أسفل الطريق، وقد ارتدوّا عُدَدَهم جميعاً،
ولكن.. سروجهم مهزوزة، وسياطهم واهية،
وسروجنا أثبت؛ ودروعنا سابغة،
ومائة فارس منكم يجب أن أقهر تلك الجيوش،
وقبل أن يبلغوا الوادى أغرقوهم بفيض من السهام،
ولكل من يقتحم الصفوف منكم ثلاثة سروج خالية تنتظره.
وسيرى **رامون برنجير** مع مَن يخوض المعركة
اليوم؛ فى غابات تيبار؛ لكى يسلبه ما جنى من غنائم».

٥٨

السيد ينتصر فى المعركة - ويستولى على سيف الكونت البتار المسمى «كولادا»

استعدوّا جميعاً للمعركة عندما تحدّث سيدى؛
شهروا سيوفهم وامتطوا صهوات جيادهم،
وفى أسفل الطريق رأوا قوّات الفرنجة قادمة[1]،
وأخيراً عندما مّست أقدامهم أوّل الوادى،

(١) الفرنجة Francos اسم كان يطلق على سكان قطلونية Catalonia، مقاطعة اسبانية فى الشمال الشرق عاصمتها برشلونة، حتى القرن الثانى عشر فى المؤلفات الأندلسية، إسلامية أو مسيحية، وكان يطلق اصلا على سكان جنوب فرنسا، وأحياناً على أى أوربى.

أمَرَ سيدى، منْ وُلد فى لحظة سعيدة، بالهجوم،
فأطاعه رجاله مبتهجين، وبعزائم قوية،
توالت سهامهم ونبالهم كليل تهاوى كواكبه،
فجرحوا بعض المسلمين، وهزموا الآخرين فولّوْا هاربين،
وانتصر **السيِّد**، وربح المعركة منْ وُلد فى ساعة طيبة،
وأسَرَ الكونت **رامون**، وفى السجن ألقى به،
وغنم سيفه البتّار «كولادا» وثمنه على ألف مارك يزيد.

٥٩

كونت برشلونة أسيرا يريد أن يتركوه يموت جوعا

وهكذا ربح **السيِّد** المعركة وشرّف لحيته،
ثم حمل كونت برشلونة إلى خيمته،
ونادى أتباعة المخلصين وأمرهم بحراسته،
وبعدها تركهم وخرج من الخيمة.
وأخذ أتباع سيدى يتوافدون قادمين من كل جانب،
واحمرَّ وجهه ابتهاجاً بما حملوا من غنائم وفيرة،
وأعدّوا لسيدى دون **لذريق** طعاماً شهياً.
ولكن الكونت **راموان** لم يُعر شيئاً من ذلك اهتماماً.
فأحضروا له الطعام، وتركوه أمامه،
فأعرض عن الأكل، ورفض أن يذوق شيئاً،
- «حرامٌ على إنْ أكلتُ لقمة، ولو دُفع لى كل ذهب إسبانيا،
قبل أن أطعمها أفضّل أن أخسر بدنى وروحى معاً،

شيء يدفعني إليه مجرّد التفكير فى أنَّ أشباه الحفاة هؤلاء انتصروا علىّ !».

٦٠

السيد يعد الكونت بأن يطلق سراحه

وتحدث سيدى **رُوى دِياث**، فاسمعوا جيداً ما قال :

كلْ أيها الكوْنت من هذا الخبز، واشربْ من هذا النبيذ،

وإذا سمعتَ قولى رددْتُ لك حرّيتك،

وإذا رفضت بقيت فى الأسر مدى الحياة !.

٦١

إعراض الكونت

- «كلْ أنتَ يادون **لذريق**، واسترحْ إذا أردت،

لأنى أفضّل أن أموت جوعاً قبل أن آكل لقمة»

وجاء اليوم الثالث ومازال معرضاً عن الطعام؛

ورجال السيد يجمعون الغنائم؛ ويتوزيعها مشغولون؛

فلم يستطيعوا أن يقنعوه بأن يأكل ولو لقمة من رغيف.

٦٢

السيد يكرر وعوده للكونت ثم يطلق سراحه ويودعه

وقال **السيّد** : «كلْ، كُلْ طعامك. تناولْ شيئاً،

فإذا بقيت ممتنعاً فلن يتاح لك أبداً أن ترى وجوهاً مسيحية؛ !

أما إذا أكلتَ استجابة لرغبتى،

فستصبح أنت، ياكونت **برنجير**، واثنان من فرسانك،
أحراراً، مطلق السراح، دون أى مقابل غير تناول الطعام».
وما إن سمع الكونت هذا الوعد حتى انتعش:
«إذا وفيتَ يا سيد بما وعدت به الآن،
فسأكون بك معجباً، ولك مقدرا، ما امتدَّت حياتى».
- إذًا كُلْ يا كونت، وإذا ما قاسمتنى العيش والملح
فسأطلق سراحك سعيداً، أنت واثنين من رجالك،
ولكن ما خسرت فى المعركة، وما ربحتهُ أنا فى الميدان،
لاأفكر أن أرد لك منه حتى مالا يساوى حبة خردل!،
لأن الرجال الذين معى، ويقاتلون إلى جانبى، فى أشد الحاجة إليه،
ومما انتزعت منك، ومن آخرين، أدفع لهم رواتبهم،
وعلى هذا النحو تمضى حياتنا ما أراد الأب المقدس،
وما ارتضاها من غضب عليه الملك ومن أرضه نفاه».
فابتهج الكونت وطلب ماء ليغسل يديه،
فكان له ما أراد فى الحال، وبسرعة جاءوه بالماء،
ومع الفارسين اللذين سيطلق السيد سراحهما
أكل الكونت بشهية طيبة يحسد عليها، ويا لها من شهيّة يا إلهى!،
وإلى جانبه جلس من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
«كونت!... إذا لم تأكل جيداً، على النحو الذى يرضينى،
فستبق هنا، وتعيش معى، ولن ننفصل أبداً».
فقال الكونت: «كما ترى، أنا آكل، آكل مسروراً وبإرادتى».
ومع فارسيْه أقبلوا على الطعام يزدردونه عجلين،

وسرّ سيدى، وكان معهم يرقب ما يصنعون،
لأن الكونت دون **رامون** التهم الطبق نهما.
- « إذا وافقتم يا سيدى، يمكننا أن نذهب توًا،
فرهم يعطونا ثلاثة جياد وسنرحل فى الحال،
إننى منذ أصبحت كونت، لم آكل بشهية كما أكلتُ الآن،
ونكهة هذا الطعام لن تُمحى من ذاكرتى أبداً ».
فأمر لهم بثلاثة جياد، ممتازة التسريج والإعداد،
وبملابس صُنعتْ من خير الجلود، وغطاء،
وعلى هذا النحو مضى الكونت دون **رامون** بين حارسيه،
وخارج خيمته، متحفّزا ودّعهم القشتالى،
ها أنت ترحل يا كونت حراً[1]
وإنى لأشكر لكم ما خلّفتم لنا من ثروات وأموال،
وإذا تذكّرت يوما والتهبتَ حمية، وفكّرت فى الثأر،
وجئت تبحثُ عنى فأعلمنى قبلها،
فإمّا أخذتُ مما لكم أكثر مما أخذتُ؛ أو تحملون أنتم مما عندى شيئا.
- « من الثأر لا تخش شيئا، وابق هادئا ياسيدى،
وأعتقد أنكم غنمتم ما يعادل جزية عام كامل على الأقل،
أما الحديث عن المجئ هنا لمحاربتكم ثانية، فشىء لا أفكر فيه ! ».

---

(١) يستخدم الشاعر للتعبير عن هذا المعنى كلمة Franco وهى تعنى حراً، ويمكن أن تعنى قطلونيا على ما أشرنا، وكلا المعنيين يمكن أن يراد هنا.

٦٣

الكونت يرحل خائفا - ثروات المنفيين

امتطى الكونت صهوة جواده، وانطلق مسرعا،
ومن حين لآخر كان يدير رأسه، يلتفت وراءه خائفا،
كان الكونت يخشى أن يندم سيدى،
أمرٌ لا يقدم عليه البطل، ولو بكل ما فى الأرض من ثروات،
إنه لم ينكث أبدا فى عهد قطعه، أو كلمة وعدَ بها،
وعندما غاب الكونت عبر الطريق عاد إلى خيمته **ابن بيبار**،
فاجتمع برجال جيشه يتبادلون الحديث مبتهجين
من الغنائم الهائلة التى ربحوها فى الميدان،
وبها أصبحوا من الأغنياء الذين لا يستطيعون إحصاء ما يملكون من أموال!

obeikandl.com

النشيد الثانى

زواج بِنْتَىْ السَّيد

٦٤

السيد يهاجم أرض بلنسية

هنا تبدأ ملحمة سيدى **ابن بيبار.**
لقد سكن سيدى ميناء ألوكات،
تاركا سرقسطة، مبتعدا عن أراضيها،
وخلّف وراءه وشقة، وبعيدا هناك منت ألبان،
ومتجها نحو البحرِ المالح بدأ الحرب،
وحيث تشرق الشمس سلك طريقه،
لقد استولى سيدى على الشارقة، وأوندة والمنارة،
ووقعت أرضى بوريانا فى قبضته، فى خاتمة المطاف.

٦٥

الاستيلاء على مربيطر

لقد ساعده الخالق. السَّيِّد الذى فى السماء،
وبعون كبير منه استولى على مربيطر،
ولحظ سيدى أن عناية الله دائما ترعاه،
والذين فى مدينة بلنسية جميعا منه خائفون.

obeikandl.com

٦٦

مسلمو بلنسية يحاصرون السيد، والسيد يجتمع مع رجاله - ويلقى فيهم خطابا

لم ير سكان بلنسية فى اقترابه خيرا، وكانوا يخافونه كثيرا،
فعقدوا مجلسهم وقرَّ رأيهم على محاصرة السَّيد،
وتحت ظلمة الليل الحالكة تحركوا نحوه، فوصلوا مع إشراقة الصباح،
حاصروا مربيطر، وعلى مشارفها نصبوا خيامهم،
وعندما رآهم سيدى، تعجب قائلا :
« شكراً لله الأب الروحى !
فى ديارهم سنبقى، وسنُلحق بهم ما استطعنا من أضرار،
لقد شربنا نبيذهم، وأكلنا ما قدموا لنا من طعام،
فإذا جاءوا لحصارنا، فبحق ما يصنعون،
والمعركة وحدها يمكن أن تضع حدا لما بيننا من خصام،
فلنرسل بريدنا إلى من سيكونون عونا لحظة اللقاء :
بعضهم إلى الشارقة، والآخرون يذهبون إلى ألوكات،
ثم يتابعون سيرهم إلى أوندة، ولا ينسون المنارة،
ومنها إلى بريانا، فإذا أعلموا أهلها إلينا يعودون،
حينئذ نبدأ المعركة الفاصلة مطمئنين،
إن ثقتى بالله كبيرة، وأنه سيكون معنا ويبارك لنا ».
وما إن أشرق اليوم الثالث حتى التقوا جميعا،
ومَن وُلِدَ فى لحظة سعيدة تحدث إليهم :

« اسمعونى أيها الجنود، يحفظكم الله !
منذ أن ودَّعنا المسيحية الصافية،
ولم تكن تلك رغبتنا، وكنّا عليها مكرهين،
ولكن بفضل الله كان النصر حليفنا،
والآن فإن سكان بلنسية جاءوا لحصارنا،
فإذا رغبتم الإقامة فى الأرض التى نحن عليها،
كان علينا أن نعطيهم درسا بلا مثيل ! ».

٦٧

نهاية خطبة السيد

عندما ينصرم الليل ويزحف الفجر،
تكون الخيل معدة والسلاح جاهزاً،
وسوف نمضى لقتال تلك المحلة،
منفيّون نحن فى أرض بعيدة،
وهناك سنرى من الذى يستحق أن يقبض راتبه ».

٦٨

مينايا يقدم خطة المعركة- السيد ينتصر فى معركة أخرى فاصلة - ويستولى على الجبيلة

اسمعوا ما يقول **مينايا ألبار هانييث :**
« **قنبيطور !** ... نحن ننفذ ما تأمر به،
أعطنى مائة فارس فحسب، ولا أطلب منك مزيداً،

وأنت مع الآخرين عليك أن تسبقنا متقدماً،
هاجمهم بقسوة، دون خوف ولا رحمة،
وأنا، مع المائة فارس، أفاجئهم من جانب آخر،
أثق بالله، وسريعاً فإن ساحة المعركة ستكون لنا».
وأمّن **القنبيطور** على ما قال، وكان به سعيداً،
فى الصباح مبكرين جميعاً تكونون قد حملتم السلاح،
وكل واحد منهم يعرف بالدقة ما يجب عليه أن يقوم به،
ومع الفجر فإن سيدى سوف يتجه إلى المسلمين،
- «باسم الخالق، والحوارىّ شنت ياقب،
اهجموا عليهم أيها الفرسان، بإرادة صادقة وعزم مكين،
أنا، رُوى دياث سيدى، ابن بيبار».
ورؤيت حبال خيام كثيرة تفرقع هنا وهناك،
تهاوت أعمدة الخيام وتطايرت الأوتاد،
ولكن المسلمين كثيرون، ويحاولون الثبات.
وأيضاً فإن **ألبار هانيبيث**، اقتحم المعركة من جانب آخر.
ولو أن الأمر أحزنهم، أقروا بالهزيمة،
وبسرعة الخيل أفلت من استطاع الفرار،
فلحقوا بهم، وعندما أدركوهم قتلوا ملكيْن مسلميْن،
وظلوا فى أثرهم حتى بلغوا أبواب بلنسية،
وكانت الغنائم التى حصل عليها سيدى كبيرة،
سرقوا كل ما فى ساحة المعركة، وبعدها أخذوا يعودون،
فدخلوا مربيطر ومعهم كل ما حملوا من غنائم هائلة،

وعمّت المدينة فرحة غامرة،
ثم استولوا على الجبيلة وما حولها،
وعم الخوف بلنسية، وحار أهلها فيما يصنعون،
وأخبار سيدى رن صداها فى كل مكان.

٦٩

غارات السيد جنوب بلنسية

ومن جانب آخر فإن شهرته بلغت البحر.
وامتلأ السيِّد غبطة، وازداد جيشه فرحاً،
لأن الله ساعدهم فكان النصر حليفهم،
وأرسل فرسانه فى إغارات ليلية متوالية ، وليلا كانوا يخرجون،
فوصلوا قليرة، ثم جازوها إلى شاطبة،
وتوغلوا هابطين، حتى بلغوا سكان دانية،
فدمروّا أراضى المسلمين كلها حتى البحر،
واستولوا على سلسلة جبال بنى كادىً، مداخلها ومخارجها.

٧٠

السيِّد فى جبل بنى كادى

عندما استولى السيد القنبيطور على جبل بنى كادىً،
تألم سكان شاطبة، وكان أسى أهل قليرة بالغاً،
ولم تنس بلنسية شيئاً من أحزانها.

obeikandl.com

٧١

الاستيلاء على منطقة بلنسية كلها

وعاش فى أرض المسلمين، يغزو وينهب، هنا وهناك،
ينام النهار، ويمضى الليل سهران.
وليستولى على ذلك الوادى أنفق سيدى ثلاثة أعوام.

٧٢

السيد يحاصر بلنسية - وينادى بالحرب بين المسيحيين

بَقِى سكان بلنسية مرعوبين،
لا يجرءون على الخروج، وليسوا راغبين فى النضال،
بين **السيد** يدمر جنانهم، ويلحق بهم أفدح الأضرار،
وخلال هذه الأعوام حال بينهم وبين الحصول على أى طعام،
وضج سكان بلنسية شاكين، وحاروا ماذا يفعلون،
لم يعودوا يحصلون على الخبز، من أى مكان،
وذهل كل والد عن ولده، ولم يعد الأبناء يساعدون الآباء،
ولا الصديق صديقه. لم يعد أحد يعاون فى الضراء،
وضجّ سادة القوم فلم يعودوا يملكون رغيفاً من خبز،
وماتت الزوجات جوعاً، ومات الأبناء،
كانت آلامهم مجسمة؛ وعن التخلص منها عاجزون،
فأرسلوا إلى ملك مراكش يطلبون العون،
غير أنه كان مشغولا بحربه مع الموحدين فى جبال الأطلس،

فلم يقدم لهم النصح ولم يجىء ليكون لهم من المساعدين،
وعرف سيدى الخبر، ففاض قلبه سروراً،
وذات ليلة خرج من مربيطر سهران طائفاً.
فطلع عليه الفجر فى أرض مُونت ريال،
وأرسل من ينادى بانتصاراته فى نبرّة وأرجون،
وبعث إلى قشتالة برسالة :
«من يرد أن يتخلص من عمله، ويرد أن يصبح غنيا حقاً،
فليأت إلى سيدى، بطل محارب راغب فى القتال».
ولكى يُقدم بلنسية هدية إلى المسيحيين فقد ضرب عليها الحصار.

٧٣

تكرار النداء

من يُرد أن يأتى معى لحصار بلنسية،
وتعالوا جميعاً أحراراً بإرادتكم ودون إكراه من أى مخلوق،
فليعرف أننى سأبق ثلاثة أيام قريباً من قناة ثيلا.

٧٤

الناس يتوافدون على المنادى - حصار بلنسية وسقوطها

ذلك ما قاله سيدى، **القنبيطور** المخلص،
ثم عاد إلى مدينة مربيطر، ومن قبل استولى عليها،
واعلم أن الرسل مضوا عبر كل الجهات ينادون بما قال **السيد**،
وانتشرت رائحة الغنائم فما تخلف أحد عن المجىء،

وآخرون جاءوا مدفوعين بعقيدتهم المسيحية الخالصة،
وطارت أخباره وشاعت فبلغت كل الأنحاء،
والقادمون لينضموا أكثر عدداً من الذاهبين،
وبدأت تتضخم ثروات سيدى، **ابن بيبار**،
وغمره الفرح عندما رأى كثيرين يتوافدون،
ولم يرد سيدى دونْ **لذريق** أن يمضى فى صبره،
فتقدم نحو بلنسية مباشرة وانقض عليها،
وضرب سيدى حولها حصاراً دقيقاً صارماً لا يفلت منه إنسان،
لا أحد من سكانها يستطيع خروجاً أو الدخول،
وضرب لهم أجلا لعل أشقاءهم لمساعدتهم يقدمون،
ودام الحصار مستمراً تسعة أشهر بلا انقطاع،
وبمجىء العاشر أحنت المدينة رأسها مستسلمة،
يا للبهجة الغامرة تطوق سكان المكان،
عندما استولى سيدى على بلنسية ودخل المدينة ظافراً!
والذين كانوا بالأمس مشاة عادوا على صهوات الخيل يسرعون،
والذهب والفضة من الغنائم ، من يستطيع عدها؟،
وكل الذين كانوا هناك من أتباع **السيِّد** أصبحوا أغنياء،
وكان الخمس لسيدى **دون لذريق** فأمر بأن يُعزل فى مكان،
فخصه من المال العين وحده ثلاثون ألفاً من الماركات،
وما أصاب من الغنائم الأخرى، من يستطيع إحصاءه؟
وغمرت الفرحة سيدى، وكل أتباعه هناك،
عندما بدأت رايته خفاقة على القصر تداعب الهواء.

٧٥

ملك إشبيلية يرغب فى استرداد بلنسية

استراح سيدى، وركنت كل جيوشه إلى الهدوء،
ووصلت رسالة إلى ملك إشبيلية تنبئه :
«لقد استسلمت بلنسية، وليس هناك من ينقذها».
فسار الملك نحوها على رأس جيش عدته ثلاثون ألفاً،
ودارت رحا المعركة وراء البستان،
فغلبهم سيدى، صاحب اللحية المرسلة، فولوا هاربين؛
فتبعهم مطارداً حتى مدينة شاطبة،
وعندما عبروا نهر شقر كانوا شملاً ممزقاً،
ضد التيّار سار المسلمون، ومسرعين راحوا يعبّون الماء،
وهرب ملك إشبيلية وفى بدنه ثلاثة جراح،
وعاد سيدى محمّلاً بغنائم أخرى،
وإذا كانت غنائم بلنسية كبيرة، عندما استولى على المدينة،
فقد كانت غنائمه فى هذه المعركة أكثر عدداً وأغلى ثمناً؛
وقبض جنود المعركة الأخيرة، كل واحد مائة مارك من الفضة،
فانظر إلى أى حد تزدهر أعمال الفارس الشجاع.

٧٦

السيِّد يرسل لحيته غزيرة وكثيفة - إثراء أتباع السيِّد

كانت الفرحة شائعة بين كل هؤلاء المسيحيين،

obeikandl.com

الذين كانوا مع سيدى **روى دياث**، مَن وُلد فى لحظة سعيدة،
ولقد نمت لحيته، واستطال شعرها،
لأن سيدى قال ذلك بفمه ولم ينسه :
« حبًّا فى الملك **ألفونسو** الذى نفانى فى هذه الأرض،
لن تمس لحيتى موسى، ولن أقص من رأسى شعرة،
وليتحدث عن ذلك من شاء، مسلمون ومسيحيون،
واسترلح سيدى **دون لذريق، ابن بيبار**، فى مدينة بلنسية،
ومعه **مينايا ألبار هانييث**، ملازم له لا ينفصل عن جانبه،
لقد أثرْوا كثيراً هؤلاء الذين أُخرجوا من قشتالة منفيين،
جميعاً، فى مدينة بلنسية، عوضهم خيراً **القنبيطور** المعدود،
ولحظ سيدى أن رجاله مع ما أصابوا من غنائم كبيرة،
يودون أن يعودوا إلى أراضيهم مسرورين،
وعملا بنصيحة **مينايا** أصدر السيد أوامره :
إذ كان بعض أتباعه، أولائكم الذين ربحوا معه كثيراً،
يذهبون الآن دون أن يودّعوه، ودون أن يقبّلوا يده[1]،
فسيلحق بهم أيّان ذهبوا ولن يستطيعوا إفلاتا،
وسوف ينزع منهم ما أقطعهم من أرض ، ويودعون الحياة مشنوقين،
وعندما اتخذ القرار بكل ما يتطلبه من حذر واعتناء،
اختلى **السيِّد** مع **مينايا البار هانييث** يتشاوران :
« إذا وافق رأيكم **مينايا**، أود أن أحصى

---

(١) التابع لا يمكن أن يتحلل من تبعيته، وأن يفارق مولاه قانونا، إلا إذا ودعه مستأذنا، وطلب أن يقبل يده.

الرجال الذين هنا، أتباعى، وغنموا معى شيئا،
نكتبهم جميعا فى صحيفة ويصبحون مُسجَّلين؛
حتى إذا اختبأ واحد، أو غاب فلم نعد نراه،
رد ما ربح معنا إلى هؤلاء الأتباع المخلصين،
الذين يسهرون خارج أسوار بلنسية وينهضون على حراسة المدينة »
فرد **مينايا** : « تفكير مصيب ! ».

٧٧

السيد يحصى رجاله - ويتهيأ لإرسال هدية جديدة إلى الملك

أمر **السيد** بأن يحضروا جميعا فى ساحة القصر،
فأحصاهم واحدا واحدا. وكلٌّ يُنادى باسمه عاليا،
فكان عدد أتباع سيدى، **ابن بيبار**، ثلاثة آلاف وستمائة من الرجال،
فسر من قلبه، وغمرته الابتسامة، وتحدث قائلا :
« شكرا لله **يا مينايا**، ولمريم الأم المقدسة !
فى قليل من الرجال خرجنا يوما من ديارنا فى قرية بيبار،
ونحن اليوم أغنياء كبار، وغدا نكون أكثر غنى،
إذا كان يسرك **يا مينايا**، ولن يسبب لك ضيقا ما
أود أن أبعث بك إلى قشتالة رسولا حيث ضياعنا،
وإلى الملك **ألفونسو**، سيدى الشرعى،
من هذه الغنائم التى حزناها فى هذه الأرض،
أود أن أهديه مائة حصان، واخترتك لتحملها إليه،
وعنى قبِّل يده، ثم تقدم إليه برجاء حار،

أن يدع زوجى **دونيا خمينا** وبنتى، يأتين معك،
إذا فاض عفوه، وسمح لهن بأن يخرجن من هناك،
وسوف تذهب لهن وتبلغهن هذه الرسالة :
« يازوجة سيدى وبناته الأميرات،
لقد أمر **السيد** بأن تأتين معى فى رفقتى، محترمات مكرمات،
إلى أراض بعيدة، افتتحها وغدا سيدها » .
حينئذ قال **مينايا** : « مسرورا سأنفذ ما أمرت » .
وأثناء الحديث أعدت خطة الرحيل،
فأعطى سيدى **ألبار هانييث** مائة من خيرة الرجال،
يقومون على خدمته ويكونون له حراساً أقوياء عبر الطريق،
وأعطاه ألف مارك من الفضة، يقدمها لكنيسة سان بطرس،
على أن يعطى نصف المبلغ للشماس **دون شانجه**.

٧٨

دون خرونيمو يصل إلى بلنسية

الهدايا والأخبار الجديدة أسعدت الجميع،
ومن الجانب الشرق جاء رجل دين كبير،
المطران **دون خرونيمو** كما تدعوه الجماهير،
رجل أديب واسع الثقافة وذو عقل حصيف،
مطران شجاع قاتل أرضا وعلى جواد،
ولتأييد سيدى وعونه، يمضى عبر الأرض داعيا،
وأمنيته الكبرى أن يلتقى مع المسلمين مناضلا فى ساحة القتال،
فإذا أشفى غلّه طاعناً المسلمين بيديه،

فسيخفّف دموع المسيحيين على امتداد قرن من الزمان،
وعندما استمع إليه سيدى رد مبتهجا :
« اسمعنى **يا مينايا ألبار هانييث**، بحق ذلك الذى فى الأعالى،
- وعندما يساعدنا الله فنحن نعرف كيف نكون من الشاكرين -
لأقيمنَّ فى أرض بلنسية مطرانية، ولأعينن مطرانا،
وفى عزمى أن أقدم المنصب هدية لهذا المسيحى التقى،
وأنت، عندما تصل قشتالة، قص عليهم ما تعرف من أخبارنا ».

٧٩

دون خرونيمو يعين مطرانا

وافق هوى فى نفس **ألبار هانييث** ما قال **دونْ لذريق**،
ومن ثم فقد تولى **دون خرونيمو** منصب المطران،
عُين مطرانا على بلنسية حيث يستطيع أن يصبح من كبار الأغنياء،
يا إلهى !... كم كانت بهجة المسيحيين غامرة،
فقد أصبح لهم فى بلنسية سَيِّد مطران،
سعيدا ودّعهم **مينايا** ومضى.

٨٠

مينايا يتجه إلى مدينة كاريون

خلّف وراءه أرض بلنسية هادئة تنام فى سلام،
اتجه إلى أرض قشتالة **مينايا ألبار هانييث**،
وسندع المحاطَّ التى نزلها، لا أود أن أعدَّها لكم،

وسأل عن **ألفونسو :** أين يستطيع أن يلقاه،
فعرف أن الملك ذهب إلى مدينة « ساهاجون » من قريب،
فعادوا إلى « كاريون » : حيث يمكن أن يجدوه،
كان **مينايا ألبار هانييث** طوال الرحلة سعيدا،
لأنه يحمل إلى هناك كل جميل من الهدايا والهبات ! .

٨١

مينايا يحيى الملك

كان الملك **ألفونسو** خارجاً من الكنيسة بعد أن حضر القدّاس،
ولما رأى **مينايا ألبار هانييث** فى كل أبهته ناداه،
فاتجه إليه، وجثا أرضاً على ركبتيه، أمام كل الناس،
ثم ارتمى على قدمى الملك **ألفونسو** لهفان شديد الألم،
وهو يقبل يده، تحدث المحارب الربان.

٨٢

خطاب مينايا أمام الملك - غيرة غرسية أوردونييث - الملك يعفو عن أسرة السيد - أميرا كاريون يطمعان فى ثروات السيد

شكراً، سنيور **ألفونسو،** بحق الخالق !
يود سيدى المناضل أنْ يقبل يديكم،
أن يقبل قدميكم واليدين، فأنت سيد صالح وأهل لذلك،
طالباً منكم أن تصنعوا فيه معروفاً وسيكافئكم الخالق عليه،
لقد أخرجته من أرضه، وحرمته من حبك،

ومع أنه فى أرض بعيدة، فإن أحواله يمكن أن تسوء،
لقد استولى على الشارقة، وعلى مدينة تحمل اسم أوندة،
وسقطت فى يده المنارة، ومربيطر وهى أفضل الجميع،
وافتتح قرية جبيلة، وتقدم بعدها إلى قسطلون،
واستولى على قرية بنى كادىّ قلعة قوية التحصين،
لقد أصبح سيِّد بلنسية وكل ما حولها من القلاع والحصون،
وبنفسه أقام مطرانية وعين مطرانا، الطيبُ **القنبيطور**،
خاض خمسة معارك فاصلة، وكان من المنتصرين،
وربح غنائم طائلة، ساقها إليه الخالق المكين،
وها بين يديك الدليل على صدق كل ما أقول،
مائة جواد درير، قوية البناء والتكوين،
سروجها مهيأة، وشكائمها رائعة التذهيب،
أقبل يدكم راجيا أن تتقبلوها وأن تكونوا عنها راضين،
شاهد ولاء على تبعيته وأنكم سيده الراعى الأمين».
ورفع الملك يده اليمنى مصلِّباً:
- «هذه الغنائم الهائلة التى ربحها القنبيطور،
- مبارك القديس إيزادور! - ملأتْ قلبى غبطة،
هى وما حقق **السيِّد روى دياث** من انتصارات،
إن قبلت هذه الجياد، وقد أرسلها إلىّ هدية».
ولكن ماسرّ الملك أحزن **غرسية أوردونييث**:
«يبدو كما لو لم يبق فى أرض المسلمين مخلوق على قيد الحياة،
هكذا يريد أن يصور لنا الأمر هذا **السيد القنبيطور**.
فقال الملك للكونت: «دع هذا النقاش،

فإن **السيد** على أى حال يخدمنى خيراً مما تفعل أنت».
حينئذ تحدث **مينايا** فى لهجة رجل :
«إن **السيد** يطلب عفوكم ويرجوكم معروفا،
أن تأذنوا لزوجه، **دونيا خمينا**، وبنتيه الأميرتين،
يخرجن من الدير حيث أودعهن بنفسه،
كى يذهبن إلى بلنسية ليكن مع القنبيطور الصالح».
فأجاب الملك : «ذلك شىء يسرنى من القلب،
ولهن الأمن والرعاية، طوال الرحلة، داخل مملكتى،
أحميهن من كل شر، وأدفع عنهن كل أذى، وأصون عفافهن،
فإذا بلغن الحدود، وتجاوزن أرضى، فعليك أنت
تحميهن، ويكن فى رعايتك، أنت **والقنبيطور**.
اسمعوا جميعا : جيشى ورجال بلاطى،
لا أود أن يفقد **السيد القنبيطور** أى شىء،
وأنتم كل الجنود الذين يعترفون به سيداً عليهم،
سوف أردّ الساعة لكم كل ما صادرت من أموال وضياع،
تبقى لكم ثرواتكم حتى وأنتم هناك مع سيدكم؛
وسأحميكم جميعاً من كل أذى ومن كل الأخطار،
أصنع ذلك معهم لكى يخدموا سيدهم بأفضل ما يستطيعون».

فقبّل **مينايا ألبار هانييث** يد الملك،
وابتسم ألفونسو وتحدث فى طلاوة :
«أولئك الذين يودون أن يذهبوا ليخدموا **القنبيطور**،
أذنت لهم فليذهبوا إليه بفضل الله،

نربح بالعفو أكثر مما نصيب بالغضب».

حينئذ تدخل أميرا «كاريون» مناقشين :

«شاعت كثيرا أخبار سيدى **القنبيطور**،

فإذا تزوجنا من بنتيه ربحناهما معا، الأب والبنتين،

ولكن تنقصنا الجرأة للحديث عما نريد،

فسيدى من بيبار، ونحن كلانا كونت فى كاريون»،

لم يبوحا لأحد بهذا الحديث، وظلت الرغبة سرا مكتوما.

وودع **مينايا ألبار هانييث** الملك الصالح،

- «أذاهب أنت **ياميناياً**؟ أرحل فى رعاية الخالق،

وسيصحبك رسول من جانبى، فهو نافع فى مثل هذه الظروف،

وإذا صحبت السيدات فاخدمهن شريفا بكل ما تستطيع،

وحتى تبلغوا مدينة سالم فأنتم فى حمايتى مطمئنين،

وبعدها، سيكنَّ فى رعاية القنبيطور،

وودع مينايا الملك، وخرج من القصر.

٨٣

مينايا يذهب إلى كاردينيا ليرى دونيا خيمينا - مزيداً من القشتاليين مستعدين للذهاب إلى بلنسية - مينايا فى برغش - ويعد اليهوديين بأنه سيدفع لهما عوضاً طيبا مقابل دينهما عند السيد - مينايا يعود إلى كاردينيا ويرحل وفى صحبته خيمينا - بدرو برمودث يرحل من بلنسية ليتلقى دونيا خيمينا - وفى مولينا ينضم إليه ابن غلبون - وبلتقيان مع مينايا فى مدينة سالم

أميرا كاريون انتهيا فى أمرهما إلى قرار،
وخرجا فى رفقة **مينايا ألبار هانييث :**
« يامن تعودت أن تصنع الجميل، أضف إلى صنيعك جميلا آخر،
انقل تحياتنا إلى سيدى **ابن بيبار**،
يستطيع أن يعتمد علينا، ونحن لعونه مستعدون،
فليتخذنا أصدقاء، ولن يخسر **السيد** بهذا شيئاً »،
فرد **مينايا :** « هذه مهمة لن تزعجنى أبداً ».
ثم عاد الأميران، ومضى **مينايا** فى طريقه،
اتجه إلى كنيسة سان بطرس حيث السيدات هناك،
وعندما رأينه قادماً كانت بهجتهن طافحة،
وما إن وصل مينايا إلى سان بطرس حتى ترجل واتجه إلى القِدّاس،
وعندما انتهت الصلاة خرج مع السيدات :
« خاضعاً، **دونيا خمينا**، أدعو الله أن يحفظكم من كل سوء،
وأن يُظل برعايته بنتيك الأميرتين.
سيدى يرسل لكنّ بتحياته من هناك حيث يعيش،
تركته مكتمل العافية، ويملك من المال الشيء الكثير،
ويعفو من الملك، كلكنّ حرّات ومعى تستطعن الرحيل،
سوف أمضى بكن إلى بلنسية، فهى من أملاكنا الآن،
فإذا رآكن **السيد** طيبات صحيحات الأبدان،
فسوف تغمره السعادة، وأبداً لن تطوف بحياته الأحزان ».
فقالت **دونيا خمينا :** « فلتكن إرادة الله ! »،
فأحضر **مينايا ألبار هانييث** ثلاثة من الفرسان؛

يحملون رسالة عاجلة إلى سيدى، ونحو بلنسية تحركوا فى الحال :
« أبلغوا **القنبيطور**، حفظه الله من كل سوء،
أن الملك عفا عن زوجه وبنتيه فأصبحن مطلقات السراح،
وماسرنا عبر أراضيه فنحن فى حمايته،
وبعد خمسة عشر يوماً إذا أظلتنا رعاية الله،
فسنكون جميعاً إلى جواره، أنا وزوجه وبناته !
ومن كن يقمن على خدمتهن من سيدات ».
وانطلق الرسل إلى وجهتهم، يؤدون ما كلفوا به من واجبات،
وبقى **مينايا ألبار هانييث** فى سان بطرس ينتظر الجواب،
ورأى فرساناً من كل الجهات يتوافدون،
يريدون أن يذهبوا إلى بلنسية لينضموا إلى سيدى **ابن بيبار**،
ويرجون **ألبار هانييث** أن يتوسط لهم ليكونوا من تابعيه.
فرد عليهم **مينايا** : « سأفعل ذلك بكل ما أستطيع ».
وبلغ عدد الراغبين فى الذهاب خمسة وستين،
ومائة آخرون جاءوا معه مرافقين،
فكانوا جميعاً للسيدات الذاهبات حراساً مخلصين.
وقدم **مينايا** إلى الشماس خمس مائة مارك كاملة،
أما الخمسمائة مارك الأخرى، فسوف أحكى لكم كيف أنفقها :
« أنفقها **مينايا** على **دونيا خيمينا** وبنتيها،
وبقية السيدات اللائى معهن مرافقات.
فكر الطيب **مينايا** أنهن يجب أن يبدأن الرحلة مهيآت،
فاشترى لهن فى برغش خير ما يوجد فيها من ثياب ومكملات،

وبغالا متخيِّرة وأفراسا فارهات،
ولما أصبح كل شيء بين يدى السيدات،
تهيأ الطيب **مينايا** لكى يبدأ الرحلة بلا إبطاء،
ولكن، وصل **راكيل وفيداس**، وعلى قدميه ارتميا،
- «**مينايا** ...نرجوك معروفا، أيها الفارس الوفى!
لقد ضعنا مع **السيِّد**، إذا لم تقدم لنا عوناً،
من جانبنا نتنازل عن الأرباح، إذا رد لنا رأس المال».
فرد عليهم: «عن القضية أتحدث مع السيد إن شاء الله،
لأنكم عاونتموه، وسيعوضكم عما صنعتم فيه من جميل»،
فقال **راكيل وفيداس**: «كانت إرادة الخالق!
وإلا تركنا برغش، وذهبنا نبحث عنه حيث نلقاه».
ذهب **مينايا ألبار هانييث** إلى كنيسة **سان بطرس**،
فاجتمع إليه خلق كثير، وجميعاً تهيأوا للمسير،
وتغشاه حزن عميق وهو يودع الشماس:
- «ليهبك الخالق نعمة السلام، **يا مينايا ألبار هانييث**»
نيابة عنى، قبِّل لى يدى **القنبيطور**، وقل له:
«**أن يجعل الدير موضع رعايته فلا ينساه ما عاش،**
وإذا ما بسط علينا حمايته وهو فى عنفوان السلطة والجاه،
رفع ذلك من قدر **السيد القنبيطور**، ماامتدت به الحياة»،
وما إن تودّعا حتى تحركت القافلة للمسير.
ومعهم، فى صحبتهم، رسول الملك المرافق،
وعبْر أراضى قشتالة قدّموا لهم الكثير من الطعام والزاد،

فقطعوا المسافة من سان بطرس إلى مدينة سالم فى خمسة أيام،
وهاهم فى المدينة، **وألبار هانييث**، وبصحبته السيدات،
والآن سوف أحدثكم عن حامل الرسالة من الفرسان،
عندما بلغت أخبارهم سيدى **ابن بيبار**،
خفق قلبه فرحاً، وفاض غبطة وبشرا،
وبفمه تعبيراً عن البهجة تكلم **السَّيد**:
«من يرسل طيباً من نفس الشيء ينتظر الجواب،
أنت، **مونيو جوستيوث** أولا، **وبدرو برمودث** على مستواك،
ثم **مارتين أنتولينييث**، برغثىّ صيغ من وفاء،
والمطران **دون خرونيمو**، رجل دين فريد المثال،
اذهبوا مع مائة فارس مسلحين فقد تضطركم الحال للنضال،
وسيكون طريقكم عبْر شنتمرية الشرق بدءاً،
وبعدها تلقون مدينة مولينا فاجتازوها آمنين،
لأن حاكمها **ابن غلبون** رجل صديق، ومحب للسلام،
وسيخصص لرفقتكم خلال أراضيه مائة فارس آخرين،
وإلى مدينة سالم عَدوا السير ما استطعتم،
فهناك زوجى، وبنتاى، و **مينايا ألبار هانييث**،
وكما قالوا لى، ستجدونهم فى انتظاركم آملين،
فإذا وصلتم فاصحبوهنّ إلى هنا بكل ما يستأهلن من تشريف وتعظيم،
وسأبقى أنا فى بلنسية، وامتلاكها كلفنى الكثير،
والتخلى عنها الآن ضرب من الجنون المرير،
سأقيم هنا فى بلنسية، **وقد أصبحت ملكى**، مجدى الثمين».

ومأن انتهى من كلامه حتى تهيأوا للرحيل.
واصلوا السير، دون راحة، ما استطاعوا،
مروا بشنتمرية الشرق، وبعدها توقفوا فى «فرونشالس».
وفى اليوم التالى بلغوا «مولينا» حيث ألقوا عصا التسيار،
وعندما عرف **ابن غلبون** المسلم أنهم على وشك الوصول،
خرج للقائهم بكل حفاوة وترحاب:
«أنتم أتباع صديق الحميم والشرعى،
ألا فاعلموا أن وجودكم لا يضايقنى، على العكس يجلب لى السرور».
فرد **مونيو جوستيوث**، حالا دون انتظار:
«سيدى يحييكم، ويطلب منكم أن تساعدوه،
بمائة فارس يود أن توفروهم فى الحال،
زوجه وبنتاه فى مدينة سالم منتظرات،
ويود أن تذهب إليهن وتأتى بهن،
ثم ترسل بهن إلى بلنسية محروسات».
فردّ **ابن غلبون**: «سأنفذ ما تريدون».
وفى تلك الليلة زودهم بقدر هائل من الزاد والطعام،
وفى صباح اليوم التالى تهيأت القافلة للمسير،
وإذا كانوا قد طلبوا منه مائة فارس فقد رافقهم فى مائتين،
فعبروا جبالا عالية، صعبة المسالك والمنحدر،
حتى انتهوا إلى وادى «ماتا دى ترانث»،
دون أن يمسهم عبر الطريق طائف من خوف،
فلما بلغوا سهول «أربو خويلو» تهيأوا للنزول،

وفى مدينة سالم كانوا لكل طارىء مستعدين،
وقد ارتعب **ألبار هانييث** عندما رأى الجنود المسلحين،
وأرسل اثنين من فرسانه ليعودا له بحقيقة الحال،
ولم تبطىء بهم العودة، وإنما فرحين قفلوا راجعين،
وقد بقى واحد مع القادمين، وعاد الثانى إلى **ألبار هانييث**:
- «إنها قوات **القنبيطور**، عنا جاءوا يبحثون،
هناك، كما ترى، **بدرو برمودث** على رأس الراكبين،
وأيضا **مونيو جوستيوث**، أحد الأصدقاء المخلصين،
و **مارتين أنتولينييث** فارس برغشى،
والمطران **دون خرونيمو** رجل الدين الوفى،
ثم القائد **ابن غلبون** على رأس جيشه القوى،
جاء تكريما لسيدى، ومبالغة منه فى التشريف والتعظيم،
يتحركون جميعاً وحدة متكاتفة، وقريبا يصلون.
حينئذ قال **مينايا**: «إلى صهوات الخيل أيها الفرسان،
علينا أن نخرج للقائهم مسرعين بلا تأخير»،
وتقدم فى مائة فارس عليهم جميعا مظاهر الثراء،
على صهوات خيل مطهمة ، مغطاة بالخز والديباج،
سوالف فى مقدمها، ترن أجراسها، ويتدلى منها الشعار،
فى أيديهم السهام، وفوق رءوسهم تخفق الرايات،
أراد **ألبار هانييث** أن يشعر الآخرين كم هو قوى،
وكيف خرج من قشتالة مع هؤلاء السيدات،
الذين فى المقدمة كانت مهمتهم أن يكتشفوا الطريق،

وما لبثوا أن امتشقوا سيوفهم وبها راحوا يلعبون،
وفى بهجة غامرة مروا قريبا من نهر شلون،
وجاء الآخرون فمرُّوا أمام **مينايا** إظهارا للولاء،
ووصل **ابن غلبون** ونظر إليه متأملا،
وامتلأ فمه بابتسامة عريضة، ثم مد يده مسلما،
وقبّله فى كتفه جريا على الشائع المألوف من العادات :
«يوم سعيد، لأنى رأيتك فيه.. **مينايا ألبار هانييث**،
وأتيت معك بهؤلاء السيدات، وبهن ازددت شرفاً،
فهن : زوجة السيد المحارب وبنتاه الشرعيتان،
جميعاً لكم احترامنا، هذا قدر **السيد** وحظه،
حتى ولو كنا لانحبه، فنحن عن إلحاق الضرر به عاجزون،
وهو معنا، يشاركنا قدرنا، فى الحرب أو السلام،
وغبىٌ من لا يعتقد أن ذلك هو الحق، وما سواه هباء».

٨٤

المسافرون يستريحون فى مدينة سالم - ثم يرحلون منها إلى «مولينا» - ويقتربون من بلنسية

وضحك **ألبار هانييث مينايا** من أعماق قلبه :
يا ابن غلبون، إنك لصديقه فى السراء والضراء،
وإذا أراد الله ووصلتُ إلى **السيد**، ورأيته ثانية بنفسى،
فكل ما صنعتُه من أجله لن يضيع هباء،
أما الآن، فهيا نسترح ، فقد أعد لنا الرفاق العشاء».

فرد **ابن غلبون** : «شكرا على ما وعدتم،
وقبل أن تمر ثلاثة أيام سارده لكم مضاعفا».
ثم دخلوا مدينة سالم، فانتهت المسئولية إلى **مينايا**،
كانوا جميعاً شاكرين ما قدم لهم من خدمات ورعاية،
ثم أمر رسولَ الملك المرافق لهم أن يعود من حيث جاء،
وأحس سيدى بارتفاع قدره وهو مقيم فى بلنسية،
أدرك ذلك مما حمل أتباعه من مدينة سالم من زاد وطعام،
فمينايا لم ينفق شيئاً، وكل ما احتاجوا إليه تكفَّل به الملك،
وانصرم الليل، وجاء وراءه الفجر متعقباً،
سمعوا القدّاس أولا وبعده امتطوا صهوات الخيل مسرعين،
ودّعوا مدينة سالم، ثم اجتازوا نهر شلون،
واتجهوا نحو «أريوخويلو» وصعودا مضوا إليها جاهدين،
ثم طووا وادى ترانت فى زمن يسير،
حتى وصلوا مدينة مولينا حيث يحكم **ابن غلبون**،
والمطران **دون خرونيمو** مسيحى صالح ذو صفحة بيضاء،
ليل نهار يقوم على رعاية السيدات،
وعلى يمينه فارس شجاع دائما يحمل السلاح،
ومعه، فى رفقته، **مينايا ألبار هانييث**،
سريعا دخلوا مدينة «مولينا» وفيها نزلوا قصراً فخماً رائع التأثيث،
وقام **ابن غلبون** المسلم على قراهم فهيأ لهم ما يريدون،
يطلبون كل ما أحبوا فيأتيهم بلا تقصير ودون تأخير،
وزاد فأهداهم حدوات جديدة لخيولهم.

يا إلهى!.. كم بالغ فى تشريف **مينايا** والسيدات،
فرافقهم بنفسه حتى مدينة بلنسية، ليكون من القائمين على راحتهم،
وودعهم الحاكم المسلم ورفض فى إصرار أن يقبل شيئاً،
جاءوا تلفهم البهجة، وتسبقهم الذكريات السعيدة،
وصلوا قريبا من بلنسية، على بعد ثلاثة أميال معدودة،
وإلى سيدى، من تمنطق سيفه فى مناعة طيبة،
بعثوا إليه رسولهم فى داخل بلنسية.

٨٥

السيد يرسل رجاله للقاء القادمين

كان سيدى يتوهج بشرا، أكثر من أى يوم مضى،
لأن أحب الأشياء إلى قلبه، أصبح أقربها إليه،
فأرسل مائتى فارس خرجوا مسرعين،
لاستقبال **مينايا**، والسيدات الموقرات.
وبقى هو فى بلنسية حارساً ومراقبا.

٨٦

دون خرونيمو يسبقهم إلى بلنسية ليعد خطة الاحتفالات - -السيد يخرج للقائه - ثم يدخلان المدينة معا

كل هؤلاء الفرسان استقبلوا **مينايا**،
والسيدات، والبنتين، وكل الدين لهم مرافقين،
وأمر سيدى القائمين على شئون بيته،

أن يقوموا على حراسة القصر والقلاع الأخرى العالية،
إلى جانب كل الأبواب، ومخارج المدينة ومداخلها،
وأن يهيّأوا له الفرس ببيكا وغنمها من قريب،
من ملك إشبيلية، وقد انتصر عليه فى معركة فاصلة،
ولمّا يجربه سيدى بعد، من تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة،
أهو عصىّ الشكيمة أم ذعن القياد.
وعلى أبواب بلنسية، مطمئنا كامل الأمان،
أخذ أمام زوجه وبنتيه يلعب بالسلاح،
وفى احتفال مهيب، استقبلت المدينة السيدات،
وكان المطران **دون خرونيمو** يتقدم الجميع
مترجلا عن حصانه متجها إلى مذبح الكنيسة،
حيث يوجد أُولئكم الذين أعدهم يوما على مهل من رجال الدين.
فارتدوا عباءاتهم، وحملوا صلبانهم، وكانت من الفضة،
ثم خرجوا لاستقبال السيدات و **ميناياء**،
وحينئذ سارع من وُلِدَ فى لحظة طيبة،
فارتدى عباءة حريرية سابغة بدت لحيته معها أكثر وضوحا،
وأخرجوا له فرسه ببيكا، مسرجا، كامل التسريج،
فامتطاه **السيد**، حاملا سلاحه من أقواس وسهام،
وباسم فرسه ببيكا تحرّك،
وقام بعرض ألوان من الفروسية معجزة،
حتى إذا انتهى ترك الحاضرين فى دهشة غارقين،
ومن ذلك اليوم فإن «ببيكا» نال شهرة واسعة فى كل إسبانيا.

obeikandl.com

وعندما انتهى من عرضه ترجل سيدى،
ثم اقترب من زوجه، ومن بنتيه، وهما عنده أثيرتان،
وما إن رأته **دونيا خمينا** حتى ارتمت على قدميه :
« شكرا **يا قنبيطور**، يا من تمنطقت سيفك فى لحظة سعيدة،
لقد حررتنى من أشياء كثيرة، سيئة ومخجلة،
هاأنذا بين يديك سيدى، أنا وبنتاك المحبوبتان،
بفضل الله وفى رعايتك سينشآن، صحيحتين مهذبتين »،
واحتضن **السيد** زوجه ثم بنتيه،
ومن السرور الغامر، والبهجة الطافحة، بكت عيناه،
وجنوده يتأملونه وهم جميعا مثله فرحون،
بعضهم يتبارون بانسلاح وآخرون يدربون على تحطيم القلاع،
اسمع ما قال من تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة :
« أنت، يا **دونيا خمينا**، زوجى العزيزة الشريفة،
ويابنتىّ المحبوبتين، أنتن ملء القلب والروح،
ادخلن معى بلنسية، حيث بيتنا هناك ».
فقبّلت الأم والبنتان يد **السيد**،
وفى حفل باذخ وتشريف كبير، دخل الثلاثة بلنسية.

٨٧

السيدات يتأملن بلنسية من شرفات القصر

اتجه سيدى مع السيدات الثلاث إلى القصر،
وهناك صعد بهن إلى أعلى مكان فيه،

حيث تستطيع العيون أن تسرح عبر كل الجهات،
يتأملن بلنسية ، وما عليه المدينة من امتداد،
فإذا اتجهن إلى جانب آخر فالبحر هناك،
ونظرن إلى البساتين، كبيرة وجميلة ومخضرة،
وكل ما فيها ممتع يشيع السرور والبهجة،
ثم رفعن أيديهن إلى السماء، واتجهن إلى الله شاكرات،
وقد منحهن هذه الثروات، وكل ما عنده من طيبات،
وسيدى ورفاقه فى قمة الصفاء والبهجة،
لقد انهزم الشتاء، وشهر مارس على الأبواب،
والآن أود أن أقول لكم شيئا عما يجرى هناك وراء البحار،
عن الملك **يوسف بن تاشفين**، وهو فى مراكش مقيم.

٨٨

ملك مراكش يجىء ليحاصر بلنسية

غضب ملك مراكش من سيدى **دون لذريق**:
«لقد زج بنفسه فى أراضىّ،
ولايريد أن يقر بفضل لأحد غير المسيح».
وأمر ملك مراكش هذا بحشد الجيوش؛
واجتمع له من رجاله خمسون ألفا مسلحين،
اتجهو إلى البحر واحتشدوا فى السفائن متأهبين،
قاصدين بلنسية بحثا عن سيدى **دون لذريق**،
وأدركت السفن الشاطئ، فهبطوا البر واثبين.

٨٩

اتجهوا إلى بلنسية، وكان **السِّيد** قد استولى عليها من قريب،
نصبوا خيامهم، وعسكروا، جندا من روح القتال مجردين،
أنباء وصولهم بلغت سِيدى حالا بلا إبطاء ودون تأخير.

٩٠

فرحة السيد عندما رأى جيوش ملك مراكش - خوف خمينا

«شكرا لله، الأب الروحى!
كل ماأملك من خير هو الآن بين ناظرىّ،
بجهد وتعب ربحت بلنسية، وهى الآن ملكى، بين يدىَّ،
لن أبرحها إلا جثة هامدة، ميتًا فقد الحياة،
بق أن أشكر الله، ومريم المقدسة
على أن زوجى وبنتىّ، معى هنا إلى جوارى،
لقد جاء الحظ يبحث عنى من بعيد، من وراء البحار،
علىَّ أن أحمل سلاحى دوما، دون تفريط أو إهمال،
وسترى زوجى وِبْنتاى كيف تكون الحرب، كيف يكون النضال،
ويعرفن كيف نعيش فى هذه الأراضى البعيدة، ونحمى الديار،
ويتأملن بأنفسهن كيف نشق من أجل لقمة العيش، وكيف ننتزع الحياة».
فأمر زوجه وبنتيه بأن يصعدن إلى القصر، إلى أعلى مكان فيه،
وفى نظرة واحدة رأين كل الخيام،
- «ياسِيد، ما الذى أرى هناك، يحفظك الله».

- «يازوجتى الشريفة، لا تدعى الألم يسحقك،
ما هنالك ثروات رائعة وكثيرة تنتظرنا،
لقد وصلتِ من قريب، ويريدون أن يهدوك شيئا عظيما،
لكى تزوجى بنتيك هنا أحضروا لك ما به تجهزّين العرسان».
- «شكرا لك سيدى، وشكراً للأب الروحى»،
- «يازوجى، ابْقَ فى القلعة لا تفارق الحصن،
لا تجزعى، عندما ترينى أناضل فى ساحة القتال،
فبفضل الله، وأمه مريم المقدسة،
سيمتلىء القلب شجاعة، لأنكن أمامى ترقبْننى،
وبعون الله، المعركة لنا، والنصر حليفنا».

٩١

السيد يقوى من عزائم زوجه وبنتيه - المسلمون يهجمون على ضواحى بلنسية

نُصبت الخيام، وتسربت أشعة الفجر،
وضجّت الطبول، ضجت بقرع صاخب مرتفع،
وابتهج سيدى قائلا: «ياله من يوم عظيم!»،
وارتعبت زوجه وأوشك قلبها أن يقفز من بين الضلوع،
والسيدات وابنتاه، تغشاهن خوف مريع،
فمنذ ولدن لم يسمعن قرعا كقرع اليوم يخرق الآذان،
وطالت لحية **السيِّد**، الطيب **القنبيطور**:
«لا تدعن الخوف يبلغ منكن فاليوم لنا على أى حال،

قبل خمسة عشر يوما، إذا شاء الخالق القدير،
سننتصر فى المعركة وبين أيدينا ستكون تلك الطبول،
لَكُنّ ساحضرها، لترين بانفسكن كيف تكون،
ثم نقدمها للمطران **خرونيمو** هدية من المقاتلين،
ليعلقها فى كنيسة القديسة مريم، أم الخالق»،
نذر أخذه على عاتقه **السيد القنبيطور،**
سرّت السيدات، وبدأ الخوف ينقشع عنهن،
وتحرك مسلمو مراكش فى عزيمة صادقة،
فاجتاحوا ما حول بلنسية من حدائق غير خائفين.

٩٢

هجوم مباغت للمسيحيين

لقد رآهم الرقيب، وبدأت تدق الأجراس،
فأخذت عدتها جيوش **روى دياث،**
وفى حميّة صادقة تسلحوا، ثم اتجهوا إلى خارج المدينة،
وعندما التقوا مع المسلمين انقضوا عليهم بسهولة،
طردوهم عن الحدائق، ومزقوا صفوفهم،
وما إن غربت الشمس حتى قتلوا خمس مئة كاملين.

٩٣

خطة المعركة

استمروا يلاحقونهم حتى الخيام،

obeikandl.com

لقد حققوا بغيتهم كاملة وبدءوا يعودون،
لكنهم خلّفوا وراءهم **ألبار سلفادورث** أسيراً هناك،
وعاد مع **السيد**، الذين أكلوا عيشه وشاركوه الطعام،
لقد رأى كل شيء بعينه، لكنهم أخذوا يقصون له ما كان،
وكان سيدى مبتهجا، فرحا بما يصنعون :
« اسمعونى أيها الفرسان، على هذا النحو لا يمكن أن تسير الأمور،
لقد كان يوما رائعا، وغدا سيكون أفضل منه،
غدا، قريبا من مطلع الشمس، عليكم جميعا أن تحملوا السلاح،
ثم يمنحكم البركة **دون خرونيمو** المطران،
ويصلّى بكم القدّاس، وبعدها تسرعون بالركوب،
نسرع إليهم، ونهاجمهم، فمن المحال أن يبقى الحال على هذا المنوال،
باسم الخالق، وحواريّه شنت ياقب،
من الخير أن ننتصر عليهم، قبل أن يأتوا فينتزعوا منا لقمة العيش ».
حينئذ أجابوا جميعاً : « سنفعله راغبين عازمين ».
وردّ **ميتايا**، إذ لم يستطع على الحديث صبرا :
« أما وأن هذه رغبتك، فلتأمرنى بشيء،
أعطنى مائة فارس ومعهم سترى كيف يكون القتال،
فإذا هاجمتَ فى الوسط، فسأهاجم أنا من الخلف،
فى جانب، أو فى جانبين، وسوف يساعدنا الله ».
فردّ عليه السيّد : « اعتمد على عزيمتى القوية ».

٩٤

السيد يتنازل للمطران عن الضربة الأولى

النهار يسلك طريقه خارجا، والليل يتأهب للدخول.
وبينما الجنود المسيحيون يأخذون أهبتهم،
فى الساعة الثالثة ليلا، قريبا من الفجر،
بدأ المطران **دون خرونيمو** يرتل القدّاس،
وهم يستمعون إليه ثم منحهم بركاته :
«مَن يمت منكم مقاتلا وجها لوجه،
أغفرْ له ذنوبه، وتسكن روحه مستقرة فى جوار الله،
وأنت يا **سِيد، دون لذريق**، يا من فى ساعة طيبة تمنطقت سيفك!
سوف أرتل لك القدّاس فى نفس هذا الصباح،
وأطلب منك فضلا، وأنا واثق أنك ستعطينى إياه،
أن تكون الطعنات الأولى من سيفى، وبيدى أوجهها».
فقال القنبيطور : «لك ما طلبت!».

٩٥

المسيحيون يخرجون إلى المعركة - هزيمة يوسف - غنائم لا تحصى - السيد يحيى زوجه وبنتيه - دوطة للسيدات اللائى مع خمينا - توزيع الغنائم

خرجوا جميعاً مسلحين من تحت أبراج كوارتو،
سيدى وتابعوه أحسنوا تنظيم أنفسهم،

بعضهم بقى على الأبواب مدجج السلاح،
وفى وثبة واحدة قفز سيدى على فرسه ببيبكا،
جيد التسريج، مزينا بالعقود والأجراس،
ثم رفعوا رايتهم وخرجوا مخلفين بلنسية وراءهم،
فى رفقة سيدى بلغوا أربعة آلاف غير ثلاثين،
ليهاجموا شجعاناً خمسين ألفاً من الأعداء مقاتلين،
بينما **مينايا، وألبار ألبارث**، اقتحموا المعركة من الجانب الآخر،
ورجوا الله حينئذ أن يكون النصر حليفهم،
وقد حارب سيدى بالسهام فلما نفدت ضارب بالسيف.
فقتل مسلمين كثيرين لم يحصهم أحد،
وعلى امتداد ساعده جرى الدم ساخناً، وعند الكوع أخذ يتساقط،
وطعن الملك **يوسف بن تاشفين** ثلاث طعنات،
لكن الملك المسلم همز جواده وأسرع تاركاً ساحة القتال،
فالتجأ إلى مدينة قليرة، فى قلعة بها ترف القصور،
فطارده سيدى **ابن بيبار**، حتى بلغ هناك،
ومعه، فى رفقته، جمع من رجاله المخلصين،
ثم قفل راجعاً من ولد فى ساعة طيبة،
طافح البشر بما حاز من غنائم وثروات،
وعرف قيمة ما يساوى فرسه كله من الرأس حتى الذيل!
وكل هذه الغنائم الهائلة أصبحت الآن بين يديه،
ومن بين الخمسين ألف مسلم الذين خاضوا المعركة،
لم يستطع أن يفلت هارباً غير مائة وأربعة رجال،

obeikandl.com

ثم أقبل جنود سيدى يسرقون ما فى ساحة القتال،
ومن الذهب والفضة فحسب أصابوا ثلاثة آلاف مارك،
أما الغنائم من الأشياء الأخرى، فإحصاؤها كان من العسير،
كان سيدى فرحاً، وشاركه فرحته كل تابعيه،
كان الله معهم، وبفضله انتصروا فى لحظة اللقاء،
وعندما رأى السيِّد أن الهزيمة حاقت بملك مراكش،
ترك هناك **ألبار هانييث** يحصى ما ربحوا من غنائم،
وقفل راجعاً إلى بلنسية على رأس مائة فارس،
منحِّياً الكوفية عن وجهه، نازعاً الخوذة عن رأسه؛
ممتطياً صهوة فرسه بيبيكا، شاهراً سيفه فى يده،
فأسرعت السيدات للقائه، وكن واقفات فى انتظاره،
وأمامهن توقف سيدى، دون أن يرسل لفرسه العنان :
« أمامكن أنتن، أستشعر التواضع، ثروة هائلة ما غنمناه،
وما عشتنّ فى بلنسية سيكون النصر حليفى فى الميدان،
هذه إرادة الله، ومعه كل القديسين،
ما إن وطئتنّ أرض بلنسية، حتى ساق إلينا ما ترين من أموال،
انظرن، سيفى يقطر دماً، وحصانى يتصبب عرقاً،
وبمثل هذا ننتصر على المسلمين فى ساحة القتال،
اتجهن إلى الخالق داعيات كى يمد فى حياتى ويهبنى المزيد من الأعوام،
سوف أدفع بكن إلى المجد، ولتقبيل أيديكن سيأتى رعايا كثيرون »،
ذلك ما قال سيدى، ثم ترجل عن حصانه.
وعندما رأينه ترجل عن جواده، واستوى واقفاً على قدميه،

السيدات، وبناته، وزوجه، سيدة من الفضليات،
جميعاً جثون أمام **القنبيطور** خاشعات :
« نحن شاكرات لأفضالك، مدّ الله فى حياتك سنوات وسنوات ».
وحوله محيطات به، دخلن القصر مهللات،
وعلى الأرائك الغالية معه استوين جالسات مستريحات.
- « يا زوجتى، **دونيا خمينا** ألم تدْعى لى به ؟
وهؤلاء السيدات اللاتى جئن معك، وعرفن كيف يقمن على خدمتك،
أود أن أزوجهن بالممتازين من توابعى،
وكل واحدة منهن سأعطيها مائتى مارك كاملة،
ولكى يعرفوا فى قشتالة، على مَن كن يسهرن خادمات،
قضية بناتك سندرسها على مهل فى أناة »،
ونهضن جميعاً واقفات، وقبَّلن يده راضيات،
وشاعت الفرحة كبيرة وشاملة بين ما فى القصر من أبهاء وقاعات،
على حين ظلَّ **مينايا ألبار هانييث**، بعيداً فى ساحة القتال،
مع عدد من رفاقة، يحصون الغنائم ويسجلون،
ما بين خيام وسلاح وملابس غالية،
أشياء كثيرة ربحوها تتجاوز ما يحتاجون،
وفضلا عن ذلك أود أن أحكى لكم عن أغرب ما ربحوه :
« أعداد هائلة من الخيل كانوا عن حصرها عاجزين،
لأنها مرسلة تجرى، وليس هناك من يأخذ بزمامها،
والمسلمون فى تلك الأرض غنموا شيئاً،
ورغم كل هذا فإن **القنبيطور** المعدود،

كان نصيبه من خيرة ما أصابوا ألف جواد،
وعندما رأى سيدى أن حظه من الغنائم كان هائلا،
أدرك متأكداً أن بقية أتباعه بما قبضوه راضون،
ما أكثر الخيام المزينة التى ربحوها ومعها العمدان، رائعة الصنع،
ربحها سيدى، ومعه كل تابعيه،
وكانت خيمة ملك مراكش أروع الخيام صنعة،
والأعمدة التى تنهض عليها مُحلاّة بالذهب،
فأمر سيدى **القنبيطور** المعدود:
بأن تترك منصوبة، وألا يمسها مسيحى،
«خيمة كهذه جاءتنا من مراكش البعيدة،
أريد أن أرسلها إلى الملك **ألفونسو** القشتالى،
فيصدق ما بلغه من أخبار بأن سيدى غنم شيئاً».
ثم دخلوا مدينة بلنسية حاملين كل هذه الغنائم.
والمطران **دون خرونيمو**، رجل دين ومقاتل شجاع،
وظامئ إلى الدماء، كان يقاتل فى المعركة بكلتا يديه،
ولكثرة ما قتل، ضاع من ذاكرته عدد من صرع من المسلمين،
وبالمثل كان نصيبه من الغنائم وفيراً غير محدود،
لأن سيدى **دون لذريق**، من ولد فى لحظة سعد،
أعطاه فوق نصيبه عشر ما خصَّه من الغنائم كقائد.

٩٦

فرحة المسيحيين - السيد يرسل هدايا جديدة إلى الملك

فى بلنسية، كل المسيحيين أصبحوا فرحين.

ربحوا أموالا طائلة، وعديداً من الخيل والسلاح،
وفرحت **دونيا خمينا**، وبناتها الأميرتان.
وكل السيدات الأخريات، أصبن الزواج مع الغنائم،
وسيدى الطيب، لم يتأخر فى السؤال :
« أين أنت أيها الرجل الشجاع ؟ تعال إلى هنا يا **مينايا**،
ما أصابك من الغنائم لن يسألك عنه أحد،
أما الخمس الذى يخصنى فسوف أقول لك مخلصاً :
« خذ منه ما تريد » خذ ما لك رغبة فيه،
وغداً، مع إشراقة الفجر، عليك أن ترحل بلا تأخير،
ومعك الخيل التى أصبتها فى خمسى مما غنمنا فى الحرب،
كلها مسرجة، تتدلى منها سيوفها وشعاراتها مزينة الأرسان،
حُبّاً فى زوجى وبنتى العزيزتين.
فقد تركهن يمضين إلى حيث هن راغبات،
وهاته المائتا فرس كهدية له ليست قليلة،
وحتى لا يتحدث الملك **ألفونسو** بسوء عمن يحكم فى بلنسية ».
وأمر **بدرو برمودث** بأن يرافق **مينايا** فى رحلته،
وأن يصحب معه مائتى رجل من خيرة المقاتلين،
أبلغوه تحيات **السيد**، وأنه يقبّل يديه،
ومن آخر معركة ربحها سيدى وجنى منها هذه الغنائم،
يرسل لكم مائتى فرس هدية،
وأننى سأخدمه دائما ما امتدت بى الحياة ».

٩٧

ميناليا يحمل الهدية إلى قشتالة

لقد خرجوا من بلنسية، وتهيأوا للرحيل،
كانوا يحملون غنائم هائلة، عليهم أن يحرسوها يقظين،
واصلوا السير ليل نهار، دون أن يتوقفوا مستريحين،
عبروا سلسلة الجبال، وأراضي أخرى تفصلهم عن قشتالة،
فلما وصلوا بدأوا يسألون : عن الملك **دون ألفونسو**.

٩٨

ميناليا يصل إلى بلد الوليد

عبروا سلاسل الجبال، والوهاد والمياه،
ثم وصلوا إلى بلد الوليد، حيث الملك هناك،
فأرسلوا له من قبلهم **برمودث** و **ميناليا**،
لكي يأمر باستقبال الوافدين،
يحملون له هدايا سيِّد بلنسية.

٩٩

الملك يخرج لاستقبال أتباع السيد - غيرة غرسية أوردونييث

كان الملك فرحاً كما لم يُر يوماً،
فأمر فرسانه بأن يمتطوا صهوات خيلهم بأسرع ما يستطيعون،
وعلى رأس جنده سار الملك واسع الخطو،
ليستقبل رسل من وُلد في ساعة طيبة،

وأميرا «كاريون» كانا للعلم أيضاً فى المقدمة،
ثم الكونت **غرسية** خصم السيد اللدود،
وما سرّ بعضهم أثار حسرة فى نفوس الآخرين،
وعلى مرأى البصر كان رجال من وُلد فى ساعة طيبة،
وبدوا كما لو كانوا محلة، وليسوا مجرد رجال مُرسلين،
وما إن رآهم الملك **ألفونسو** حتى صلّب مرات،
وفى نفس اللحظة تقدم **مينايا** و **بدرو برمودث**،
ترجّلا عن فرسيهما، واستويا على الأرض واقفين،
كلاهما ركع أمام الملك **ألفونسو** تشريفا،
قبّلا الأرض بين يديه أولا، وأتبعاها فقبلا منه القدمين،
- «شكراً، ياملك **ألفونسو**، لأنت ملك شريف،
من أجل سيدى **القنبيطور**، نحن هنا جميعاً نقبل اليدين،
إليكم يتوجه منادياً سَيّدى، فتقبلوه واحداً من رعاياكم،
السيد يقدر كثيراً ما أضفيتم عليه من تشريف،
من أيام قليلة، أيها الملك، انتصر فى معركة،
على ملك مراكش، وباسم **يوسف** جميعاً ناديه،
ومزق جيشه فى ساحة المعركة، وتبلغ عدته خمسين ألفاً،
الغنائم، وما ربحنا، بلغت حداً فاق ما نريد،
وأصبح كل أتباعك المخلصين أغنياء،
وأرسل لكم مائتى فرس، ومعها يقبل منكم اليدين».
فقال الملك دون **ألفونسو**: «سوف أتقبلها ممنوناً،
وأشكر سيدى على ما أرسل لى من هدايا،

وسيأتى اليوم الذى يتلقى فيه مكافأتى».
شكروه كثيراً على ردّه، ثم قبلوا يديه،
تألّم الكونت **دون غرسية** وفاض غضباً،
ومع عشرة من أقربائه انتحوا جانبا يتهامسون :
«أدهشنى أن يدرك **السيد** هذا الشرف العالى،
وهو بما حاز من تشريف وتقدير أصبح ندًّا لنا،
يقهر الملوك بلا جهد فى ساحة المعركة،
ويستولى على كل خيولهم كما لو كانوا جثثاً من الموتى،
وأعماله هذه ضدنا، تقلل من قدرنا».

١٠٠
الملك يظهر حسن نيته نحو السيد

وتحدث الملك دون ألفونسو فاسمعوا ما قال :
«شكراً للخالق، وللسنيور القديس سان إسيدور،
على المائتى جواد التى أهدانيها السيد،
وفى قادم الأيام يستطيع أن يقدم لمملكتى المزيد من الخدمات،
لك أنت، يا **منيايا ألبار هانييث، ولبدرو برمودث**، وقد جئتم إلى هنا،
آمر بأن تقدم لكم كسوة من غالى الثياب،
وبوسعكم أن تأخذوا كل ما تحتاجون من سلاح،
وهكذا فى مظهر فخم يمكنكم أن تلقوا سيدى **رُوى دياث**،
وتنازلت لكم من الخيل عن ثلاثة، فخذوها من هنا،
لدىّ إحساس داخلى، وفى أعماق صوت يصيح :
«كل هذه الأحداث سوف تنتهى إلى غاية سعيدة».

١٠١

أميرا كاريون يفكران فى الزواج من بنتى السيد

قبّلوا جميعاً يديه ثم دخلوا يستريحون،
وأمر الملك بأن يقدم لهم من زاد وطعام وقرى ما يحتاجون.
عن أميرى «كاريون» أود أن أحكى لكم شيئاً،
ثرثرتهما معروفة، ووحدهما بعيدا بدآ يعلّقان،
«أخبار السيد وبطولاته كل يوم فى ازدياد،
فلنطلب منه يدىْ بنتيه زوجتين لنا،
زواج نزداد به شرفا، ويعلى من قدرنا مع الأيام».
ثم ذهبا معا إلى الملك **ألفونسو** يفصحان له عما يريدان.

١٠٢

الأميران يجعلان الملك هو الذى يتولى الزواج - الملك يطلب مقابلة السيد - مينايا يعود إلى بلنسية ويخبر السيد بكل شىء - السيد يحدد مكان اللقاء

نطلب منك معروفا، كملك لنا وسيِّد،
أن تأذن لنا، وتخلصنا النصح فيما نحن عازمان،
فتطلب لنا زوجتين : بنتى **القنبيطور**،
نريد أن نبنى بهما لنجمع شرفنا إلى شرفهما.
وفكرّ الملك طويلا، مع نفسه تملّى أكثر من ساعة :
«لقد نفيتُ الطيب **القنبيطور** من أرضى،

أسأتُ إليه فردّ الإساءة ولاءً،
ولا أدرى إذا كان مثل هذا الطلب يرضيه،
ولكن إذا رغبتما حقا فى الزواج تحدثنا عنه مع **السيِّد**».
أرسل الملك فى طلب **مينايا ألبار هانييث و بدرو برمودث**،
أراد دون **ألفونسو** أن يتحدث إلى الاثنين،
وعندما وصلا صحبهما إلى إحدى القاعات :
- «اسمعنى يا **مينايا ألبار هانييث**، وأنت يا **بدرو برمودث** أيضا
لقد خدمنى مخلصا سيدى **روى دياث القنبيطور**،
إنه أهل للتقدير، وقد عفوت عنه،
فليأت ليراني إذا كان راغبا فى اللقاء،
ثمة حدث جديد فى البلاط أود أن أعلم به سيدكم.
دييجو وفرناندو أميرا كاريون،
يرغبان فى الزواج من بنتى السيِّد،
كونا رسولى الحكيمين، وجاء الدور لأتوجه إليكم بالرجاء،
أبلغا رسالتى شخصيًا إلى **الطيب القنبيطور**،
إذا كان يشرفه، أو مع الأيام يزداد به شرفا :
أن يصبح صهرا لأميرى كاريون».
فتحدث **مينايا**، بينما صمت **بدرو برمودث** يتابع الحديث.
«سوف نرجوه فيما به تتحدثون،
وبعدها يفعل **السيد** ما يوافق هواه»،
- «وأيضا قل لروى دياث من وُلد فى ساعة طيبة،
إننى مستعد للقائه فى المكان الذى يريد،

وحيث يختار نرفع الأعلام ونخطط الحدود،
من جانبي يسعدنى أن أمد يد العون للسيِّد».
ثم ودعا الملك، ومع الرسالة قفلا عائدين،
مسرعين إلى بلنسية، رفقة رجالهم وكل التابعين،
وعندما عرف الخبَر **الطيب القنبيطور**،
هيا فرسه وسريعا خرج للقائهم،
تملأ الابتسامة وجهه، ومحتضنا حيًا الجميع،
«وصلت **ياميناياً**؟. وأنت أيضا يا **بدرو برمودث**؟،
فى أرض قليلة يوجد رجال فى قامة هذين الفارسين،
كيف كانت تحية **ألفونسو**، سَيِّدى، وأىّ الأخبار تحملان،
هل خلَّفتماه سعيدا، وكيف كان وقع هداياى».
فرد **مينايا**: «نعم، كان سعيد القلب والروح،
سُرَّ بما تلق، ومعنا ردّ لكم المعروف».
فقال سيدى: «شكراً للخالق»،
ثم أنهيا التحية، وبعدها جاء دور الكلام
عما يحملان من رجاء **ألفونسو** ملك ليون،
ورغبته فى أن يزوّج بنتى السيد من أميرى «كاريون»،
سيكون عملا طيبا، وبه يزداد مع الأيام تشريفا،
وله يقدمان المشورة خالصة، نابعة من القلب والروح،
وبعد أن استمع لذلك سيدى **القنبيطور الطيب**،
فكرّ طويلا، وعلى مهل راح يتأمل الأمر:
«شكرا للمسيح سَيدى،

نفوق من أرضى، وانتزعوا منى كل مجد،
بالجهد الكبير حصّلت ما معى اليوم،
شكرا لله، لأن الملك رد إلىّ رضاه،
وطلب يدىْ بنتىّ زوجتين لأميرى كاريون،
قولا لى يا **مينايا ألبار هانييث**، وأنت يا **بدرو برمودث**
عن هذا الزواج، ما رأيكما، أنتما الاثنان ؟».
- «ما تراه أنت ويسعدك، نراه نحن ونوافق عليه».
فرد السيِّد : «أميرا كاريون نبيلان، ولدا من أصل نبيل
زهوّان بنفسيهما، وفى حاشية الملك معدودان،
ولكنى لخطة الزواج هذه غير مطمئن،
أنا وقد نصح به الملك، فقوله واجب التنفيذ عند الخلاف،
فى السرّ ندرس الأمر ونقلّب الرأى،
وندعو إله السماء أن يوفقنا إلى ما هو حق وخير.
وفضلا عن ذلك فإن دون **ألفونسو** يقول لكم :
«إنه ليلقاك يذهب إلى أى مكان تختار،
يريد أن يراكم ليمنحكم عفوه، ويضفى عليكم جميله،
وتستطيعون أن تتبادلوا معه القول لتنتهوا فى القضية إلى رأى».
حينئذ رد **السيد** : «ذلك شىء يسعدنى من القلب !».
حد «مكان اللقاء عليكما أنتما أن تختاراه»،
فقال **مينايا** : «أنتم سيد العارفين،
- «لايدهشن أحد إذا أمر الملك **ألفونسو**
أنه ليلقانى سوف يذهب حيث أختار أنا،

فأنا أحتفظ له بولاء عظيم كسيّد وملك،
أما وأن هذه إرادته، فلتكن إرادتى أيضا،
على ضفاف تاجو، فهو نهر كبير،
هناك سنلتقى فى الموعد الذى يحدّده سيّدى».
سريعا كُتبت الرسائل، وفى الحال وقعّها،
ومع فارسين أمر أن ترسل على الفور،
مايريده الملك سوف يحققه **القنبيطور**.

١٠٣

الملك يحدد موعد اللقاء، ويتهيأ مع رجاله للذهاب

وصلت الرسائل وأبلغت إلى الملك المبجّل،
وهو يقرؤها خفق قلبه سعادة:
«تحياتى إلى سيدى من تمنطق سيفه فى لحظة طيبة،
سيكون اللقاء خلال ثلاثة أسابيع،
إذا امتدت بى الحياة سترونى هناك بلا تأخير».
سريعا، على صهوات الخيل، عاد الرسل لرؤية **السيّد**.
كلا الجانبين أخذ عدته لهذا اللقاء،
من رأى عبر قشتالة بغلة جميلة تحث السير،
وحصانا ملكيا بالغ الجمال يسرع مزهوًّا،
وخيولاً رائعة المظهر، وفرسانا ممتازين،
رايات كثيرة تخفق عالياً على ساريات عالية،
بتوسطها شعار بالذهب والفضة أحسن تزيينه،

أغطية كثيرة، وملابس من جلود، وعباءات من صنع **الإسكندرية**،
وأمر الملك بإرسال أغذية وفيرة،
إلى ضفاف تاجو حيث تجرى استعدادات اللقاء،
أكثر الملك حاشيته وأحسن اختيارها،
وأميرا «كاريون» يلفهما البشر يمشيان،
هنا جاءا ليقبضا، وهناك يدفعان،
ثروات طائلة عندهما، وبالزواج سينمو ما يمتلكان،
وسيكون لهما من الذهب والفضة كل ما يبغيان..
بدأ الملك دون **ألفونسو** الرحلة،
ومعه الكونتات، وكبار الأغنياء؛ وكثير من الجنود،
وصحب أميرا «كاريون» معهما حاشية عديدة،
وذهب مع الملك كثير من أهل ليون، ومن جند غاليسية،
ودون أن نحسب معهم، وليكن فى علمكم، الجيوش القشتالية،
على الخيل، والأزمة مرسلة، حثّوا السيّر إلى مكان اللقاء.

١٠٤

السيد ورجاله يتهيأون للذهاب إلى اللقاء - الرحيل من بلنسية - الملك والسيد يتقابلان على ضفة نهر تاجو - الملك يعفو عن السيد علانية - وليمة كبرى، الملك يطلب يدى بنتى السيد للأميرين - انتهاء اللقاء - هدايا السيد للمدعوين - الملك يقدم الأميرين للسيد

سيدى القنبيطور فى بلنسية،

من زمن وهو يعد نفسه للقاء المنتظر،
بغال فارهة للحمل، وخيل أصيلة للركوب مُعدة ومهيأة،
وأسلحة ممتازة، وأفراس دربرة،
وعباءات فاخرة، وأغطية وثيرة، وملابس من جلود،
والشبان والرجال فى ملابس زاهية الألوان،
وكان هناك **مينايا ألبار هانييث، وبدرو برمودث،**
ومارتين مونيوث، وكان حاكما على «مُنْت مايور»،
ثم **مارتين أنتولينييث،** ذلك البرغشى المخلص،
والمطران **دون خرونيمو** كبير رجال الدين،
وجاء **ألبار ألباروث** فى رفقة **ألبار سلفادورث،**
ومونيو جوستيوث، الفارس الوفى،
وجاليندو غرسية، وكان قادماً من أرجون،
كل هؤلاء كانوا يستعدون ليرافقوا **السيِّد القنبيطور،**
وآخرون كثيرون من الأتباع الأوفياء،
ألبار سلفادورث، و جاليندو الأرجونى،
هما الاثنان كلاهما، تلقيا أمراً من القنبيطور:
أن يقوما على حراسة بلنسية بالقلب والروح،
ويشترك فى حمايتها معهما كل من فيها من سكان،
وأمر سيدى بأن تغلق أبواب القصر،
وألاّ تفتح ليلا أو نهاراً، أو تحت أى سبب،
وداخله توجد زوجه وبنتاه الاثنتان،
ومعهما ترك **السيد** روحه وقلبه،

ومعهن سيدات أخريات يقمن على خدمتهن،
وأمر بشدة كفارس عاقل
ألاّ يسمح لأية واحدة بالخروج من القصر
حتى يعود من اللقاء، من وُلد فى لحظة سعد.
خرجوا من بلنسية، وهزوا مهامزهم،
كلها خيل حرب، دربرة فى الجرى، قويةُ البدن،
غنمها سيدى فى الحرب، ولم تأته هدية من أحد،
إنه ذاهب للقاء الملك، طبقاً لما اتفقا عليه،
وقبله بيوم وصل إلى المكان الملك دون **ألفونسو**،
وعندما رأوا **القنبيطور** الطيِّب يقترب من بعيد،
تقدموا للقائه مع الكثير من مظاهر التشريف،
وعندما رأى ما يحدث، مَن وُلِد فى ساعة طيبة،
أمر الجميع بأن يتوقفوا هادئين،
ماعدا الفرسان الذين يحبونه من القلب لأنهم مخلصون،
فقد ترجل مع خمسة عشر منهم، وعلى الأرض انتصبوا واقفين،
وعلى النحو التالى تحرّك من فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة :
جثا على ركبتيه، وبالأرض التصقت يداه،
وقضم بأسنانه حشائش الأرض وما عليها من نبات،
وفاضت عيناه دمعاً، فقد كانت فرحته غامرة،
عرف كيف يعبّر عن خضوعه لألفونسو سيِّده،
وبنفس المشاعر تهاوى **السيد** على قدمى الملك،
وفى تأثر بالغ تحدث الملك دون **ألفونسو**،

« انهض، قف، أيها **السيد القنبيطور**،
قبّل يدىّ فحسب، وأعفيك من تقبيل القدمين،
وإذا لم تفعل ما آمرك، فلن يكون لك من حبى نصيب ».
وتابع **القنبيطور** زحفه جاثياً على ركبتيه :
« منكم أطلب معروفاً، سيّدى الشرعى،
كما أنا، جاثياً على ركبتى، هبنى عفوك،
علانية، كى يسمعه الذين حولى أجمعون ».
فقال الملك : « لك ما طلبت من أعماق القلب والروح،
الآن حالا، عفوت عنكم، ولكم رددت رضاى،
وعُبْ كل مملكتى تستطيع أن تتجول منذ اليوم ».
وتكلّم سيدى، عارضاً رأيه :
« قبلتُ عفوكم، دون **ألفونسو** سيّدى،
شاكراً عليه إله السماء، وأنتم،
وأيضاً هؤلاء الفرسان الذين معى من حولى ».
بقى **السيد** جاثياً، ثم قبّل يدى الملك،
ونهض واقفاً، وفى الفم قبّله،
وعمّت الفرحة كل الذين جاءوا معه مرافقين،
وأحزنت اثنين فحسب هما : **ألبار دياث، وغرسية أوردونييث،**
وتحدّث سيدى فشرح وجهة نظره،
أنا شاكر للأب الخالق،
لأنه يسّر لى عفو سيدى **ألفونسو،**
علىّ أن أتوجه بالشكر لله ليل نهار،

يجب أن تكون ضيفى إذا كان هذا يسرك، يا سَيّدى
فرد الملك : «ليس هذا هو العدل،
أنتَ وصلتَ اليوم فحسب، وقبلك أمس وصلتُ أنا،
وإذن تكون أنت ضيفى، أيها **السَّيد القنبيطور**،
وغداً يكون ما تريد أنت وندخل على قلبك السرور».
فقبّل **السَّيد** يد الملك، وأطاع ما قال،
والآن توجه إليه بالتحية أميرا كاريون :
«تحياتنا لك يا سيد، يا مَن جئت إلى الحياة فى لحظة سعد،
نودّ مساعدتك، ونحن معك فى كل ما تريد».
فأجابهما **السيد** : «تلك إرادة الخالق».
سيدى روى دياث، مَن وُلد فى ساعة طيبة،
كان ضيفاً على الملك طوال يومه،
لم يستطع الملك أن يفارقه، كان يحبه مِن القلب،
وأخذ يتأمل لحيته مندهشا وقد استطالت سريعا.
والذين مع الملك جميعاً أظهروا إعجابهم بالسيد،
ومرّ النهار، وأقبل الليل الليل زاحفاً على مهل.
وفى اليوم التالى، أشرقت الشمس كاملةَ الوضوح،
فأصدر **القنبيطور** أوامره إلى تابعيه،
أن يعدوا وليمة ضخمة تكفى الذين هناك جميعاً،
كان يسر سيدى **القنبيطور** أن يبدو على هذا النحو كريماً،
شاعت البهجة بين الحاضرين، واتفقت كلمتهم على أنهم
خلال ثلاث سنوات مضت لم يأكلوا أفضل مما أكلوا اليوم،

obeikandl.com

وفى صباح اليوم التالى، ما كادت تشرق الشمس،
حتى أخذ المطران **دون خرونيمو** يرتّل قدّاس الصباح،
وهم خارجون من القدّاس التقوا جميعاً،
وبلا تأخير أخذ الملك يشرح وجهة نظره.
« اسمعونى : الجيش، والكونتات، والأمراء،
أود ان أتوجه برجاء إلى سيدى **القنبيطور**،
تلك إرادة المسيح، ولتكن فى صالحه،
أطلب يدى بنتيكم، **دونيا ألبيرا ودونيا سول**،
لتكونا زوجتين لأميرى كاريون،
وفيما أرى : زواج مشرّف، ولفائدة الطرفين،
الأميران يطلبانهما منكم وأنا آمركم به،
والحاضرون هنا من كلا الجانبين،
من أتباعكم وأتباعى، هم الراجون الخاطبون،
فاقبل تزويجهن يا سيد، وفى حراسة الخالق تكون ».
فردّ **القنبيطور** : « ليس عندى بنات للزواج،
إنهما طفلتان لم تكبرا بعد ، وعلى الزواج مازالتا صغيرتين،
أميرا كاريون قوم مشهورون، وصيتهم طبّق الآفاق،
صالحان للزواج من بنىّ، ولغيرهما أكثر صلاحاً،
هن بنتاى من صلبى، أما الذى رباهن فأنت،
وأنا وبنتاى تحت أمركم، طوع ما تريد،
هاهما، خذهما بيدك، **دونيا ألبيرا و دونيا سول**،
وزوّجهن بمن تريد، فسابق سعيداً ».

فردّ الملك : «شكراً لك ولكل الحاضرين».
وتقدم أميرا كاريون، فقبلا يدى من وُلد فى ساعة طيبة.
وتبادلا السيوف مع **القنبيطور** فى حضرة الملك دون **ألفونسو**،
وتحدث الملك كَسيّد صالح :
«شكراً ياسيد، فأنت طيب، ومختار من الخالق.
زوّج بنتيك من أميرا كاريون،
سآخذ الاثنتين بيدى، **دونيا ألبيرا و دونيا سول**،
لتصبحا زوجتين لأميرى «كاريون»،
سأزوج بنتيك بإذن منك وبرضاك،
تلك إرادة الخالق، وفيها كل الخير،
وهاهما الآن بين أيديكم.. ياأميرى كاريون،
هما تذهبان معكم، ترافقانكم، لأنى من هنا سأعود،
لهما منى، كمساعدة، ثلاث مائة مارك من الفضة كاملة،
ينفقانها فى زواجهما، أوحيث تأمرون،
عندما يصبحان معكم، إلى جواركم فى بلنسية الكبيرة،
فالأصهار والبنات، كلهم أولادكم،
اصنعْ بهم ما يحلو لك، أيها **القنبيطور**».
واستقبلهما **السيد** وبعدها قبّل يدى الملك قائلاً :
«شكرى لكم لا يحصى، ملكا وسَيّدا،
أنت الذى اخترت وزوجت بنتىّ ولست أنا».
تبودلت الكلمات، وتمت الخطوبة.
وفى اليوم التالى عندما أشرقت الشمس،

obeikandl.com

كل واحد عاد إلى المكان الذى جاء منه،
حينئذ قام سيدى **القنبيطور** بعمل عظيم،
خيول ملكية، إلى جانبها بغال فارهة،
وملابس أنيقة، غالية الثمن نادرة،
بدأ سيدى يوزعها على كل من قبل هداياه ورغب فيها،
أعطى كل فرد ما طلب، أبداً لم يكن الجواب : لا،
قريباً من ستين جوادا قدّمها سيدى هدايا.
وكل الذين حضروا اللقاء عادوا يحملون شيئاً»،
وبدأوا يتعجلون الرحيل قبل أن يدخل الليل،
وأخذ الملك الأميرين من يديهما،
ثم وضعهما بين يدى سيدى **القنبيطور** :
- «ولداك الاثنان، وفى نفس الوقت هما صهراك،
ومنذ اليوم فصاعدا، أنت تعرف ماذا تصنع معهما **يا قنبيطور**،
بخدمانك كأب، وتحميهما كسيِّد».
«أشكركم عليه أيها الملك، ومغتبطاً أقبل هديتك،
والله الذى فى السماء سوف يكافئكم عليه».

١٠٥

السيد لا يريد أن يقدم بنتيه بنفسه - مينايا سيكون ممثلا للملك

«إنى أطلب منكم معروفاً، منكم أنتم، ملكى الشرعى،
لقد زوّجت بنتىّ، تحقيقاً لرغبتك،
فتخيَّر ممثلا لك، يتلقاهن ويصحبهن باسمك،

لن أكون أنا الذى أقدمهن بيدىّ، هكذا لا يملؤهن الزهو».
حينئذ ردَّ الملك : «**ألبار هانييث** هنا موجود،
خذهن بيديك، وقدمهن إلى أميرى كاريون،
كما أفعل أنا الآن، كما لو كنا هناك فى بلنسية،
ستكون أنت الوكيل عنهن، فى كل حفلات القران والزفاف،
وإذا عدنا للقاء عليك أن تقص لى كل ما حدث،
فردَّ **ألبار هانييث** : «سيّدى، سأعمل كل ما يجعلكم مسرورين».

١٠٦

السيد يودع الملك - هدايا

اعلم أنّ كل شىء تمّ على نحو ما فكروا فيه،
- «أيها الملك دون **ألفونسو**، لأنت سيد شريف،
كتذكار لهذا اللقاء الذى تم بيننا تقبّل منى شيئاً،
سوف أقدم لكم ثلاثين جواداً أصيلة، كلها رائعة الإعداد،
وثلاثين أخرى للسبق جيدة التسريج،
تقبل منى هذه الهدية، ومعها أقبل يديكم».
فرد الملك دون **ألفونسو** :«لقد حملتنى كثيراً،
إنى لأتقبل هدايا كم التى أمرتم بدفعها إلىّ،
داعياً الخالق، ومعه كل القديسين،
أن يكافئك على ما أهديتنى وقدمت إلىّ،
سيدى ، **روى دياث**، لقد بالغت فى تشريفى،
خدمتنى بإخلاص، وبقى أن أردّ لك الجميل،

لئن امتدت بى الحياة، فسوف تتلق منى الكثير،
فى رعاية الله أدعكم، وأرحل منهياً هذا اللقاء،
إله السماء يتولى ما اتفقنا عليه، ويبلغ به غايته».

١٠٧

كثيرون من أتباع الملك يذهبون مع السيد إلى بلنسية
الأميران يذهبان فى صحبة بدرو برمودث

امتطى **السيد** صهوة فرسه ببيبكا،
- «هنا أقول، أمام سيدى الملك **ألفونسو**،
الذين يودون أن يحضروا حفلات الزواج ويتلقوا هداياى،
فليتبعونى الآن، ذلك شىء فى فائدتهم ولصالحهم».
وودَّع **السيِّدُ** الملكَ **ألفونسو** سَيْده،
لم يرد أن يخرج معه فى رفقته مودّعاً، ومن هناك افترقا.
اسمعوا أيها الفرسان: الراغبون فى المجئ معنا
عليهم أن يذهبوا فيقبلوا يدى الملك **ألفونسو** مودعين،
- «اصنع فينا معروفاً، وامنحنا رضاك،
فنحن ذاهبون إلى بلنسية، مدينة كبيرة فى يد السّيد،
لنحضر حفل زواج أميرى كاريون
من بنتى سيدى: **دونيا ألبيرا** و **دونيا سول**».
فسرّ الملك مما قالوا وتركهم جميعاً أحراراً يذهبون،
وازداد رفاق سيدى عدداً، وتناقص أتباع الملك،
كثيرون من الفرسان آثروا أن يذهبوا برفقة **القنبيطور**،

توجهوا إلى مدينة بلنسية، وقد ربحها السيد فى لحظة حاسمة،
وقد أمر **دون دييجو ودون فرناندو**، أن يكون فى حاشيته،
وأن يكون معهم **بدرو برمودث**، ورابعهم **مونيو جوستيوث**،
فليس بين حاشيته أفضل من هؤلاء الفرسان معرفة
بما عليه أميرا كاريون من تقاليد وعادات.
هناك.. ذاهباً **أسور جنثالث**، عربيد وثرثار،
طويل اللسان، وفيما عدا ذلك يمكن الاعتماد عليه قليلا،
حظى أميرا كاريون بترحاب كبير، ولقيا تشريفاً عظيما،
هما الآن أمام بلنسية، المدينة العظيمة التى يحبها سيدى القنبيطور،
وما إن اقتربا حتى فاض بهما البشر من كل جانب،
قال سيدى لدون **بدرو**، و **مونيو جوستيوث**:
«لينزلا داراً فخمة تليق بمقامهما، أميرا كاريون،
كن معهما، فى صحبتهما، بهذا أمرتك أنا،
وغدا، مع شعاع الصبح، والشمس على وشك الشروق،
يذهبان ليريا زوجتيهما **دونيا ألبيرا** و **دونيا سول**.

١٠٨

السيد ينبئ خمينا بالزواج

مع الليل الزاحف اتجه كل واحد إلى سكنه،
ودخل سيدى **القنبيطور** القصر،
وهناك كانت **دونيا خمينا** مع بنتيها فى انتظاره:
- «وصلت؟ **قنبيطور**، ياصاحب السيف البتار»

أسعد الله عيوننا برؤيتك لأعوام طويلة».

- «شكراً للخالق، وقد يسّر لك المجيء إلى هنا يا زوجتى الشريفة،
جئت لك بصهرين، لبنتيك، من أصحاب الشرف العالى،
اشكرنى عليه، يا ابنتىّ!، فسيكون زواجاً موفقا».

١٠٩

دونيا خمينا وبنتاها يظهرن سرورهن

دونيا خمينا وبنتاها قبّلن يد سيدى شاكرات،
ونفس الشيء صنع مَن يقمن على خدمتها مِن سيدات،
- «شكراً للخالق، ولك ياسيد، يا صاحب اللحية الغزيرة،
كل ما تفعله صحيح محكم التنفيذ،
ما امتدت بك الحياة سوف تعيش بنتاى سعيدتين لاينقصهما شيء»
- «عندما تُزوجَنا، سنكون نحن الاثنتين من كبريات الغنيات».

١١٠

السيد يشك فى الزواج

«زوجتى، **يادونيا خمينا**، فلنتوجه بالشكر للخالق،
الحق أقول لكما يا بنتىّ **دونيا ألبيرا** و **ودونيا سول**
بهذا الزواج سوف نزداد شرفا ونعلو مقاما،
ولكن اعلمنَ قبل أى شيء أنه لم يكن من إعدادى،
فقد طلبكما وألح فى الرجاء سَيّدى **ألفونسو**،
رجانى بإصرار، وراغباً فيه من أعماق القلب،

واعترف لكُنّ فى شجاعة بأننى لم أستطع أن أقول له : لا،
وهكذا أضعكن فى يديه، بنتىّ... أنتما الاثنتان،
وصدِّقنى أن الذى زوّجكما هو الملك ولست أنا».

١١١

الاستعداد للزواج - هدايا الأميرين - مينايا يقدم الزوجتين للأميرين - تبريك وقدّاس - مهرجانات على امتداد خمسة عشر يوما - انتهاء الزواج - هدايا للمدعوين - الشاعر الجوّال يودع سامعيه

بدأوا فى الحال بتزيين القصر ورفع الرايات،
غُطيت الأرض وكل الجدر بفاخر السجاد،
أحمر اللون، وبالأقمشة الحريرية، وأخرى كثيرة مشابهة،
كم هو رائع أن تجلس فى قصر وأن تأكل فى خوان.
كل فرسان القنبيطور دخلوا مجتمعين،
وفى الحال أرسلوا فى طلب أميرى كاريون،
وصل كلاهما، كل واحد على ظهر جواده، ووقفا أمام القصر،
يلمعان فى ملابس زاهية، زُيّنت بكل غال ثمين،
ثم ترجّلا، ودخلا القصر، يا إلهى... عليهما وقار الخاشعين!
فتلقاهما سيدى، ومن معه من رجاله الأوفياء المخلصين،
وأمامه، وأمام زوجه، حيّوهما فى تواضع أمين.
ثم تقدما فجلسا على مقعد فخيم.
كل أتباع سيدى، فى حذر وفطنة كبيرة
ركزوا أبصارهم فيه، على من فى لحظة طيبة دق باب الحياة،

وعلى قدميه هبّ السيد واقفا :

- « علينا أن نفعله الآن، لِمَ كل هذا التأخير؟

تعال هنا يا **ألبار هانيبيث**، يا من أحبُّ كثيراً، وله آمَنُ،

هاهما بنتاى، أودعهما أمانة بين يديك.

وأنت تعرف أن الملك أمر به، وبه وعدت،

ولا أودّ أن أتراجع فى شىء اتفقت عليه مع الملك.

قدمهما بيديك إلى أميرى كاريون،

ثم يتلقون البركة، ومعها ينتهى الحفل ».

حينئذ قال **مينايا** : « سأنفذ ما تريد مسرورا »،

ووقفت البنتان، وأخذهما السّيد من يديهما،

وهما أمامه، بين يديه، تحدث إلى أميرى كاريون :

- « تعالوا أمام مينايا أيها الأميران الشقيقان :

بيد الملك ألفونسو والذى أنابنى عنه،

أقدم لكم هاتين الآنستين، كلاهما من ظهر فارس وُلدت،

خذاهما زوجتين، فهو شرف لكما، وفى فائدة الجميع ».

تلقاهما الأميران بحب وفى بهجة،

ثم تقدموا فقبّلوا يدى السيد ودونيا خمينا؛

وعندما انتهى الحفل وإجراءات الزواج غادروا القصر،

واتجهوا مباشرة مسرعين إلى كنيسة مريم المقدسة،

وارتدى المطران **دون خرونيمو** ملابسه الدينية مسرعا،

وجلس على باب الكنيسه ينتظر قدوم العرسان،

وعندما وصلوا منحهم بركاته، وأقام معهم القداس،

obeikandl.com

وبعدها غادروا الكنيسة، وامتطوا جيادهم مسرعين،
وعلى رمال بلنسية الواسعة خلّفوا خطاهم،
يا إلهى... كم كان رائعاً سيدى وهو يلعب مع تابعيه السلاح!
استبدل خلاله ثلاثة أفراس، من فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
وسعيدا بما رأى، غمرت البهجة سيدى كثيرا،
ثم وثب أميرا كاريون على جواديهما،
وعادا إلى بلنسية مع زوجتيهما، ودخلوها فرحين،
كان زواجا باذخا ذلك الذى شهده القصر المجيد،
وفى اليوم التالى أمر سيدى بأن تنصب سبعة أهداف،
وقبل أن يدخل للأكل حطم الجميع،
واستمرت حفلات الزواج خمسة عشر يوماً كاملة،
وسيدى، **دون لذريق**، من فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
اختار من بين البغال والخيل الأصيلة الدريرة،
وحيوانات أخرى كثيرة، مئات قدمها لهما هدايا،
وملابس غالية، من الحرير والجلود، وأغطية فاخرة،
دون أن يدخل فى عداد ذلك ما قدم لهم من أموال،
وأتباع سيدى تجمعوا واتفقوا فيما بينهم،
على أن يقدم كل واحد منهم للأزواج هدية نادرة،
وكثرت الهدايا، وكل من رغب فى شىء وجده بين يديه،
والذين حضروا الزواج من قشتالة عادوا إليها أغنياء،
وبدأ المدعوون يعودون إلى ديارهم غانمين،
ودّعوا **روى دياث**، من فى لحظة طيبة طرق باب الحياة،

obeikandl.com

ثم انثنوا فودّعوا السيدات وكل النبلاء،
رحلوا مسرورين شاكرين للسيِّد، ولكل تابعيه،
تحدثوا عنهم مادحين، ومن العدل أن يكونوا هم من الشاكرين،
كانت فرحة **دون دييجو** و **دون فرناندو** غامرة،
أميرا كاريون، وابنا الكونت دون **جنثالبو.**
المدعوّن إلى الحفل عادوا إلى قشتالة،
وظلّ السيِّدُ وصهراه مقيمين فى بلنسية،
وعاش فيها الأميران قريباً من عامين،
وما حظيا به من تكريم يعلو عن العدّ والإحصاء،
وكان **السيّد** أيضاً غامر البشر، وكذلك كل تابعيه،
شكرا لمريم المقدسة، وشكرا للأب المقدس،
أن تُسعد بهذا الزواج سيدى، وكل مَن ساعد عليه،
وبهذه الدعوات فإن أبيات النشيد تأتى إلى نهايتها،
رعاكم الله، وكان كل قدّيسيه فى حمايتكم.

obeikandl.com

النشيد الثالث

فضيحة كوربس

١١٢

انطلاق أسد السيد - خوف أميرى كاريون
السيد يسوس الأسد - خجل الأميرين

كان سيدى **السيد القنبيطور** ق بلنسية مع كل رجاله،
ومعهم كلا صهريه : أميرا كاريون،
وقد استلق القنبيطور على أريكة نائماً،
حين وقعت مفاجأة سيئة، اسمعوا... سوف أحكيها لكم :
انطلق أسد من مربضه حيث كان محبوساً،
فانتشر رعب عظيم عمَّ كل من فى القصر،
وفى الحال شد أتباع القنبيطور دروعهم،
وأحاطوا بالأريكة يحمون سيدهم،
ولكن **فرناندو جنثالث** أمير كاريون،
حار أين يختفى، فليس ثمة غرف مفتوحة ولا أبراج،
فارتمى تحت الأريكة يكاد يموت رعباً،
أما **دييجو جنثالث**، فدلف هارباً من الباب،
وهو يصيح بصوت مرتفع : «يا لمدينتى كاريون، لن أراها ثانية!».
ثم اختفى وراء معصرة للنبيذ مرتعد الفرائص،

فاتسخت عباءته وصدّاره، وما يرتدى تحتها من ملابس،
حينئذ استيقظ من فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
وكل رجاله الطيبين أحاطوا بأريكته حيث ينام،
ماذا حدث يارجالى، ملتفون حولى، ماذا تريدون ؟
أيها السيد لقد أرعبنا الأسد كثيراً،
واعتمد سيدى على كوعه، وهب واقفاً،
ثم ارتدى صدّاره واتجه نحو الأسد،
فما إن رآه الأسد قادماً حتى تملكه الحياء والخجل،
وأمام سيدى طأطأ رأسه، وأرخى مخلبه،
وسيدى، **دون لذريق**، أمسك به من رقبته،
ثم ساقه مطيعاً، ورده إلى القفص من جديد،
وكل الذين معه رأوه، ولم يخفوا دهشتهم معجبين،
ثم عادوا إلى القصر، إلى القاعة الكبرى غير خائفين،
وبحث سيدى عن صهريه، فافتقدهم بين الحاضرين،
فنادوا بهم فى كل جانب، فما سمعوا لهم صوتاً،
ثم وجدوهم أخيراً، شاحبى الوجوه، زاغت منهم العيون،
آه لو رأيت مَن فى القاعة، كيف انفجروا جميعاً ضاحكين،
لكن سيدى **القنبيطور** ردهم إلى الهيبة والاحترام،
وأحس أميرا كاريون بالخجل الشديد،
وأصبح كابوساً يزعجهم ما حدث هناك،

obeikandl.com

١١٣

أبو بكر ملك مراكش يهاجم بلنسية

وهما على هذه الحال غارقيْن فى الألم العميق،
جاءت جيوش مراكش تريد أن تضرب الحصار على بلنسية،
وهناك فى وادى «كوارتو» نزلوا معسكرين،
نصبوا خمسين ألف خيمة، وربما تجاوزت الحساب،
وعلى رأسهم الملك **أبو بكر**، ولعلكم سمعتم عنه شيئاً.

١١٤

الأميران يخافان من المعركة - السيد يؤنبهما

كان السيد مبتهجاً وكل رجاله،
ولأن غنائمهم زادت، فهم يتوجهون بشكرهم للخالق،
بينما، ليكن فى علمكم، ازداد أميرا كاريون حزناً،
وقد داخلهم الرعب، وهم يرون خيام الجيش الإسلامى يخطئها الحصر،
وابتعد الأخَوان، وفيما بينهما بدآ يتهامسان:
عندما قررنا الزواج من بنتيه أحصينا الأرباح، ولم نفكر فى الخسائر،
لم يبق أمامنا الآن غير أن نخوض المعركة نحن الاثنان،
وبعدها لن نعود لنرى «كاريون» من جديد،
ولن يمضى زمن طويل حتى يصبحن أرملتين بنتى السيد،
وسمع همسهما **مونيو جوستيوث** الطيب،
وبهذه الأخبار الجديدة جاء إلى سيدى **القنبيطور**:

« هناك، صهراك كلاهما، يا لهما من شجاعيْن !
قبل أن يخوضا المعركة بدأ بحثان إلى كاريون،
فاذهب إليهما تواسيهما، وتثبت قلبيهما بحق الخالق،
وأن يبقيا فى سلام، دون أن يشاركا فى المعركة بنصيب،
معك وحدك سننتصر، وسوف يساعدنا الله ».
ذهب إليهم سيدى **دون لذريق**، ومعهم تحدَّث مبتسما :
« يا صهرىَّ، الله يحميكما، يا أميرى كاريون،
بين يديكما بنتاى، بيضاوان كالشمس،
إنى أفكر فى معارك جديدة، وأنتما تحنان إلى كاريون،
ابقوا إذن فى بلنسية، واستمتعا بما تحبان،
أما المسلمون الذين هناك فأنا أعرف بهم،
وعاقد العزم على انتزاع النصر منهم بعون الله ».

١١٥

رسالة أبى بكر - هجوم الفرسان المسيحيين - جبن الأمير فرناندو - سخاء بدرو برمودث[1]

وبينما كانا يتحدثان فى هذا، أرسل الملك **أبو بكر** إلى **السيد** يطلب منه أن يترك بلنسية ويرحل فى سلام، وإذا لم يفعل فإن عليه أن يتحمل تبعات ما يفعل، فردَّ السيد على الرسول : « اذهب، وقل لأبى بكر، ابن أعدائنا، قبل ثلاثة أيام سوف أعطيه ما يأمرنى به ».

---

(١) فى المخطوطة خرم، ضاعت معه خمسون بيتاً من الملحمة، فاستعيض عنها ،بما يقابلها فى النص النثرى للمدونة، الواردة فى «مئونة العشرين ملكاً».

فى اليوم التالى أمر **السيد** جميع رجاله بأن يحملوا السلاح، ثم خرج **للقاء** المسلمين، حينئذ طلب منه أميرا كاريون أن يكونا فى المقدمة، وعندما رتبَّ السيد جيشه صفوفاً، فإن **دون فرناندو**، أحد الأميرين، تقدم لمنازلة مسلم يدعى Aladraf ، وتقدم المسلم بدوره، فم يكد الأمير يراه حتى امتلأ رعبا منه، فتراجع مذعوراً، ثم ولَّى هارباً، لم يجرؤ على الانتظار حتى يراه.

وعندما رأى ذلك **بدرو برمودث**، وكان إلى جانبه، تقدم لمنازلة المسلم، وناضل ضده حتى صرعه، ثم التقط جواده وأسرع يقتفى أثر الأمير الهارب، وقال له : « **دون فرناندو**، خذ هذا الجواد، وقل لكل العالم أنك قتلت المسلم الذى كان يملكه، وأنا أشهد لك بذلك ».

ورد عليه الأمير : « **دون بدرو برمودث**؛ أشكر لك كثيراً ما صنعت من أجلى[1].

علنى يوماً أستطيع أن أرد لك ما صنعت معى مضاعفاً،
وبعدها عادا معاً رفيقين،
وأمّن **دون بدرو** على زهو **فرناندو**،
وابتهج سيدى، وغمرت الفرحة كل أتباعه.
- « إذا أراد الله، والأب الذى فى الأعالى،
فإن صهرىّ سيكونان ممتازين فى ساحة القتال ! ».
وبينما هم يتحادثون بدأ الناس يتوافدون،
وفى جيش المسلمين بدأ يرتفع قرع الطبول،
ومع ضجيجها المتوالى عمت الدهشة كثيرين من أولئكم المسيحيين،

(١) هنا ينتهى الخرم، وتبدأ الملحمة الشعرية.

لم يسمعوا قرع طبول من قبل، فمن قريب جاءوا قادمين،
وكان أكثرهم دهشة **دييجو** و **فرناندو**،
ولو تُرك الأمر لإرادتهما ما جاءا هذا المكان.
وسمع ما تحدّثوا به مَن فى ساعة طيبة جاء إلى الحياة:
- «إلَى **بدرو برمودث**؛ يا ابن أخى العزيز!،
أوصيك جيداً بدون **دييجو** وبأخيه **دون فرناندو**،
هما صهراى، ومن القلب أحبّهما، أحبّ الاثنين،
وبعون الله لن نُهزم مع المسلمين فى ساحة القتال».

١١٦

بدرو برمودث يعتزل الأميرين - مينايا ودون خرونيمو يطلبان المكان الأول فى المعركة

إنى أطلب منك يا سيد، رحمة بى وشفقة،
ألاّ أصبح رائداً لأميرى كاريون أبداً،
فَلْيُعن بهما مَن يريد، وأمرهما لم يعد يهمنى على أى حال،
أنا ورجالى فى الطليعة نهاجم العدو،
وأنت مع رجالك تبقى ثابتاً فى المؤخرة،
فإذا تعرّضتُ لخطر عظيم، أمكنك أن تأتى لنجدتنا».
وهنا وصل **مينايا ألبار هانييث**:
- «اسمع يا سيد، أيها القنبيطور المخلص،
المعركة التى نخوضها هى معركة الخالق،
وأنت أهل لكى يكون الله إلى جوارك،

ومن الجانب الذى تراه مُزْنا نبدأ الهجوم،
وكل واحد منا سينهض بواجبه كاملا،
وبعون الله وحظك، سترى ما يكون».
وقال **السيد القنبيطور**: «لنكن هادئين، اصبروا»،
ها هو المطران **دون خرونيمو** قادم فى كامل العدة والسلاح،
ثم توقف أمام القنبيطور، كعادته طافح السعادة،
- «سأقيم القداس اليوم فى كنيسة الأقانيم الثلاثة،
من أجل هذا تركت أرضى وجئت باحثاً عنك،
يملأ علىّ فكرى أننى ربما أستطيع أن أقتل بعض المسلمين،
إن لشديد الرغبة فى أن أشرّف سلاحى، وأمجّد مهنتى،
أود أن أكون أول مبارز إذا بدأ القتال،
هذه رايتى، عليها زرافات مرسومة، وأسلحتى تحمل شارتى،
وإذا أراد الله فسوف أجرّبها،
وما يحدثنى به قلبى أنفّذه فى الحال،
وأنت، سيدى، سيكون تقديرك لى كبيراً،
فإذا لم تصنع فى هذا الجميل فارقتك الآن.
وقال سيدى: «لا شىء يسعدنى مثل أن أحقق لك ما تريد،
هناك المسلمون على مرمى عينك، فاذهب وجرّبْ معهم سلاحك،
ونحن من هنا، سنرى كيف يقاتل الشمّاس».

١١٧

المطران يبدأ المعركة - السيد يهاجم ويقتحم معسكر المسلمين

بدأ المطران **دون خرونيمو** الهجوم،

ووصل فى تقدمه إلى حيث يعسكرون،
ولأنه سعيد الحظ، ولأن الله يحبه،
فى أول ضربة له قتل اثنين من المسلمين،
فلما نفدت سهامه انتضى سيفه ومضى يقاتل،
واستبسل المطران مهاجماً، يا إلهى... كم هو رائع فى النضال!
قتل اثنين بسهم، وخمسة آخرون صرعهم بالسيف،
وتجمع حوله مسلمون كثيرون، وأوشكوا أن يحكموا حوله الحصار،
ثم انهالوا عليه طعنا، ولكنه لم يخسر سلاحه،
ومَن جاء إلى الحياة فى لحظة سعيدة ركز عينيه فيما يرى،
احتضن شعاره سريعا، وشدّ قوسه عجلا،
وهمز «بيبيكا» جواده الأصيل الدرير،
ومضى يقاتلهم فى الحال بقلبه وروحه،
اقتحم **القنبيطور** الصفوف الأولى وجال بينها،
هزم سبعة من المسلمين، وقتل أربعة آخرين،
وشكر الله على هذا النصر المبين،
ثم اندفع سيدى ورجاله يلاحقونهم دون هوادة،
خيام كثيرة تقطعّت حبالها، واقتُلعت قوائمها،
انهارت الأعمدة، ومعها تحطمت الخيام،
واستطاع أتباع السيد أن يدفعوا جيش **أبى بكر** عن الميدان.

obeikandl.com

١١٨

المسيحيون يلاحقون العدو - السيد يدرك أبا بكر ويقتله، ويغنم سيفه تيثون

أخرجوهم من خيامهم، ولاحقوهم دون إمهال،
أذرع كثيرة مبتورة وهاوية، ولّما نزل قابضة على دروعها،
ورءوس كثيرة فى خوذاتها تتساقط على الأرض،
وخيل بلا فرسان لا تعرف لها طريقا تنطلق فيه،
وأدرك سيدى الملكَ **أبا بكر**:
أبابكر تَعالَ هنا، يا من جئت من وراء البحر،
انظر إلىّ، أنا **السيد**، صاحب اللحية الطويلة، وجها لوجه:
نتبادل التحية، ونتعاهد على الإخاء».
فردّ **أبو بكر** على **السيد**: «إن الله لا يثق فى هذا الإخاء،
سيفك فى يدك، ومسرعا تهمز جوادك،
وأراك معى تريد أن تجرّب الطعان،
وإذا لم يعثر جوادى، أو يطرحنى أرضا،
فلن تلتقى معى إلاّ فى أعماق البحر أو على سطح الماء».
وردّ سيدى: «ذلك ليس بصحيح».
كان جواد أبى بكر أصيلا، فمضى ينهب الأرض مسرعا،
ولكن ببيكا، فرس السيد، توشك أن تلمسه من قريب،
وأدراك **السيدُ** أبا بكر على بعد ثلاثة أذرع من البحر،
وشهر سيفه «كولادا» عاليا، وبضربة عنيفة هوى عليه،

فأطار من خوذته غطاءها،
وفى ضربة أخرى اخترق الخوذة، وشق رأسه نصفين،
ومضى السيف فى جسمه حتى بلغ منه النصف،
لقد صرع **أبا بكر**، الملك القادم من وراء البحر،
وغنم سيفه «تيثون» ويساوى ألف مارك من الذهب النضار،
وهكذا انتصر فى معركة رائعة وفاصلة،
شرف بها السيد، وقاسمه الشرفَ كلُّ تابعيه.

١١٩

رجال السيد يعودون من الملاحقة - السيد سعيد بصهريه، وهما خجلان - غنائم المعركة

عادوا جميعاً من المعركة، يحملون ما أصابوا من غنائم،
واعلم أنهم جميعاً، وبعزم ، سرقوا كل ما فى ساحة القتال،
بدأوا يصلون إلى الخيام مع مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
جاء سيدى **روى دياث القنبيطور** المعدود،
حاملا فى يديه السيفيْن وكان اعتزازه بهما كبيراً،
وعبْر الجثث مضى مسرعاً يحث الخطو،
كشف وجهه، وأرسل غطاء رأسه إلى الوراء
بينما الكوفية فوق شعر رأسه نصف مستقرة،
حوله، ومن كل الجهات، بدأ أتباعه يتقاطرون،
شىء فوجىء به سيدى، فأدخل على نفسه السرور،
ورفع بصره، ثم ركز نظره على مكان معلوم،

فرأى الأميرين، **دييجو و فرناندو**، قادمين،
إنهما ابنا ذلك الكونت المسمى **دون جنثالبو**،
وسرّ سيدى، وابتسم فى حلاوة :
« جئتما يا صهرى؟ ابناى أنتما كلاكما!
فيما يتصل بالقتال أعلمُ أنكما عائدان مسرورين،
وأخبار طيبة عن نضالكما سوف ترسل إلى كاريون،
وكيف انتصرتما على الملك أبى بكر فى ساحة القتال،
إنى أثق فى الله وفى كل القديسين،
لأننا بهذا النصر العظيم عدنا غانمين ».
حينئذ وصل **مينايا ألبار هانيييث**،
وقد تدلى شعاره من رقبته، على مكان بارز فى صدره،
ولم يكن يهمه كثيراً أمر السهام تتساقط عليه،
لكن مرسليها لم يحققوا من أغراضهم شيئاً،
وجرى الدم على ساعده، وعند كوعه أخذ يتقاطر،
كان قد قتل عشرين مسلماً على الأقل :
- « شكراً لله، وللأب الذى فى الأعالى،
لك يا سيد، يا من وُلدت فى ساعة طيبة،
لقد قتلت أبا بكر وانتزعت النصر فى المعركة،
كل هذه الثروات التى تراها لك ولتابعيك،
وتميّز صهراك الأميران مناضلين فى ساحة القتال،
وهما منهمكان الآن فى قتال المسلمين »
وقال سيدى : « بهذا النصر عُوِّضت عن أتعابى،

وإذا كان الأميران رائعين، فهما فى المستقبل أكبر تقديراً».

كان **السيد** يتحدث بنية خالصة، ولكنهما رأيا فيما يقول سخرية قاتلة.

ووصلت كل الغنائم إلى بلنسية،

كان سيدى طافح البهجة، وكذلك كل تابعيه،

وقُسِّمت الغنائم إلى أسهم، فبلغ الواحد ست مائة مارك فضية،

وعندما تسلم صهرا السيد نصيبهما،

اعتقدا أنهما لن يعرفا الفقر أبدا فى قابل الأيام.

وبدأ سكان بلنسية يرتدون فاخر الثياب،

ويقيمون حفلات كبيرة، يزهون فيها بملابس جلدية، وصدارات جميلة.

كانوا جميعاً فى بهجة غامرة، سيدى وكل تابعيه.

١٢٠

السيد فرح بانتصاره بصهريه (إعادة)

كان يوما عظيما بين حاشية القنبيطور،

بعد أن انتصروا فى المعركة، وقُتل الملك **أبو بكر**،

ورفع **السيد** يده، وأخذ لحيته :

- «شكراً للمسيح، سيد العالم،

لقد رأيت ذلك الذى أمَّلت طويلا،

أن يكون صهراى إلى جانبى فى المعركة، هما الاثنان،

وأن تشيع أخبارهما حتى تبلغ كاريون،

أنهما فارسان شريفان، وسوف نشرف نحن بهما كثيراً.

١٢١

توزيع الغنائم

هائلة تلك الغنائم التى اشتركوا جميعاً فى الاستيلاء عليها،
ربحوا كثيرا من قبل، وما غنموه الآن سيقومون عليه حافظين،
وأمر سيدى، من وُلد فى لحظة سعد،
بأن تقسم غنائم المعركة الفاصلة التى انتصر فيها،
فيأخذ كل فرد نصيبه المقدَّر له،
وألا ينسوا الخمس المقرر لسيدى عند التقسيم،
وهكذا صنعوا، وعند التوزيع كانوا جميعا عاقلين،
وبلغ خمس سيدى ست مائة حصان،
وعددا من البغال، وأعدادا هائلة من الجمال،
أعدادا هائلة لا يمكن أن تقع تحت حصر.

١٢٢

السيد فى قمة مجده يفكر فى احتلال المغرب
الأميران غنيان وموضع التكريم بين حاشية السيد

غنم القنبيطور كل هذه الثروات الهائلة.
- «شكرا لله سيّد هذا العالم!
بالأمس كنت فقيراً وأنا اليوم من كبار الأغنياء،
أملك أرضا، وذهبا، وشرفا لا ينال،[1]

---

(١) وردت كلمة شرف Onor فى لغة الملحمة، honor فى الإسبانية الحديثة، ولكن منديث بيدال يعلق عليها فيقول: قد يكون المراد بها إقطاعيات.

وأخيرا أصبح صهراى أميرى كاريون،
وأنتصر فى المعارك، كيف ما شاءت إرادة الخالق،
المسلمون والمسيحيون يرتعدون جميعاً خوفا منى،
هناك فى داخل مراكش أرض المساجد اليوم،
يخافون أن أفجأهم بالهجوم ذات ليلة،
هم يخافونه وأنا لا أفكر فيه،
لن أذهب إليهم باحثا عنهم، وسأبق فى بلنسية،
فيها يأتون إلىّ، يحملون لى الجزية، بمساعدة الخالق،
يقدمونها لى أو لمن أختاره على هواى».
مباهج ضخمة تعم بلنسية العظيمة،
يشارك فيها كل رفاق سيدى القنبيطور،
أولئكم الذين انتزعوا النصر وقاتلوا مخلصين،
وغمر السرور فيّاضاً صهرى السيد،
فقد جاء نصيبها من الغنائم معاً خمسة آلاف مارك،
أصبح أميرا كاريون من كبار الأغنياء،
ثم جاء إلى البلاط مع بقية الفرسان،
كان سيدى هناك ، وإلى جواره المطران **دون خرونيمو،**
وألبار هانييث الطيب، الفارس الشجاع،
وآخرون كثيرون ربّاهم السيِّد،
وعندما قدم أميرا كاريون،
تلقّاهم **مينايا** نائبا عن سيدى **القنبيطور،**
- «تعاليا هنا، صهرىّ، فذلك مما يزيدنا شرفاً».

وما إن رآهم **القنبيطور** حتى تهلل بشراً :
- « أقدّم لكما يا صهرىّ **خمينا** زوجى الوفية،
وأيضاً بنتىّ **دونيا إلبيرا و دونيا سول**،
يريدان عناقكما، وسيخدمانكما من القلب،
شكراً لمريم المقدسة، أمّ سيّدنا الله
ويزاوجهما منكما سوف يزدادان قدرا،
وسريعا تصل أخبارنا الجديدة إلى كاريون ».

١٢٣

تفاهة الأميرين - الأميران يصبحان موضع السخرية

وعلى هذه الكلمات ردّ الأمير **فرناندو**،
« شكراً للخالق، ولك أيها السيد الشريف،
لقد أصبحت ثروتنا عظيمة لا يحصيها عدّ،
بك شرفنا ومن أجلك كان قتالنا،
انتصرنا على المسلمين، وفى ساحة المعركة قتلنا
الملك المسمى **أبا بكر**، خائن بالتجربة،
فكّر إذن فى شىء آخر، أما نحن فى أمان ».
وتهامس أتباع سيدى، خفيفاً يضحكون :
لقد قاتلوا فى شجاعة، وهم يلاحقون أو يهاجمون،
فلم يروا فى أى جانب **دييجو** أو **فرناندو**،
ومع السخرية والضحكات تنهال عليهما من كل جانب
عاشا تجربة مريرة متواصلة، ليل نهار بلا انقطاع،
وتوصل الأميران فيما بينهما إلى اتفاق شرير،

اعتزلا الناس، وفيما بينهما كانا أخوين مخلصين،
وما تحدثا به سرًّا أمر لايهمنا نحن :
- « فلنرحل إلى كاريون، سريعاً دون تأخير،
وما غنمنا من أموال وثروات كثير، وفوق ما نتصور،
ولسنا بقادرين على إنفاقه ما امتدت بنا الحياة !»

١٢٤

الأميران يقرران إهانة بنتى السِّيد - ويطلبان من السيد زوجتيهما لكى يذهبا إلى كاريون - السيد يوافق ويقوم بتجهيز بنتيه - الأميران يتهيآن للرحيل - البنتان تودعان أباهما

نطلب زوجتينا من **السِّيد القنبيطور**،
نقول له : إننا سنأخذهما معنا إلى أرض كاريون،
لكى نرى ضياعنا، والتى هى ضياعهن اليوم،
فنبعدهما عن بلنسية، حيث سلطان القنبيطور قوى،
وعبر الطريق نصنع بهما ما نريد،
قبل أن يسخرا منا بحادث الأسد الفريد،
فنحن نبلاء، وفى عروقنا يجرى دم أمراء كاريون،
الغنائم التى نحملها كثيرة، وذات قيمة كبيرة،
حانت الفرصة لكى نسخر من بنتى القنبيطور،
ومابحمله من ثروات يجعلنا أغنياء نحن الاثنين،
ونستطيع أن نتزوج من بنتى أى ملك أو إمبراطور،
ولأمر ما نحن ننتمى إلى أسرة أمراء كاريون،
علينا أن نسخر من بنتى السيد القنبيطور،

قبل أن تذكرانا بحادث الأسد الجسور.
وبعد الحوار والاتفاق ذهب كلاهما إلى البلاط،
تحدّث **فرنان جونثالث**، فأسكت الجميع :
« ليحفظكم الله أيها **السيّد القنبيطور**،
وأسبغ نعمه على **دونيا خمينا**، وقبلها أنت،
وعلى **مينايا ألبار هانييث**، وكل الذين هنا معك،
أعطنا زوجتينا، وقد تزوجناهما زواجا شرعيا،
نريد أن نأخذهما معنا إلى أراضى كاريون،
نودّ أن نقطعهما أرضا، مزارع مما نملك زيادة فى التشريف،
وترى بنتاك ما نملك من ضِياع،
مزارع واسعة، نورثها مَن نرزق مِن أبناء.
لم يتردد إزاء الطلب سيدى القنبيطور :
« أقدم لكما بنتىّ، ومعهما هدية بعض مالدىّ،
أنتما تقطعانهما أرضا هناك فى كاريون،
وأنا أودّ هنا أن أجهزهما بثلاثة آلاف مارك،
وأقدّم لكما الخيل والبغال، خذا من خيرها ما تشاءان،
وأفراساً أخرى، تكون مدرّبة وسريعة الجرى،
وملابس كثيرة من حرير، وعباءات قشيبة مذهبة،
ثم أعطيكما سيفىّ « كولادا » و « تيثون »،
وأنتما تعرفان جيداً أننى غنمتهما رجلا،
لقد اعتبرتكما ابنىّ عندما زوجتكما بنتىّ،
وبذهابهما معكما، فإنكما تنتزعان منى مهجة القلب،

فليعرفوا فى جليقية وفى قشتالة وفى ليون،
أنّى ثروات ضخمة ودّعت بها صهرىّ،
اخدما بنتىّ بعناية، فهما زوجاكما فى النهاية،
وإذا عُنيتما بهما، فسوف أعوضكما بالطيب من الهدايا»
بهذا وعده أميرا كاريون،
حينئذ استقبلا بنتى القنبيطور،
ثم بدآ يأخذان ما وعدهما به السّيد،
حتى إذا تخيّرا من الهدايا ما يحبان،
أمر أميرا كاريون بإعدادها للرحيل،
وذاعت الأخبار، وتغشى بلنسية العظيمة نشاط كبير،
حمل الجميع أسلحتهم، وامتطوا الخيل أقوياء مسرعين،
لتوديع بنتىّ السّيد الذاهبتين إلى أراضى كاريون،
تهيأوا للرحلة، وجاء الجميع يقولون لهم: وداعاً...
حينئذ تقدمت الأختان: **دونيا إلبيرا ودونيا سول،**
وجثتا على ركبتيهما أمام **السّيد القنبيطور:**
«نطلب رضاك يا أبانا، يحفظك الخالق،
لأننا جئنا من صلبك وأمّنا ولدتنا،
أنتما أمامنا.. سيّدتنا، وسيّدُنا،
الآن؛ وأنتما ترسلان بنا إلى أراضى كاريون،
لكما علينا الوفاء بكل ما تأمران،
ومن ثم نطلب منكما معروفا، نطلبه نحن الاثنتان،
أن ترسلا معنا رسولا من قبلكما حتى أراضى كاريون.

واحتضنها سيدى، وفى الفم قبّل بنتيه.

١٢٥

خمينا تودع بنتيها - السيد يتهيأ ليودع المسافرين - تشاؤم.

هذا ما صنع **السّيد**، وصنعته الأم مضاعفا،
- « اذهبا بنيّ !... فى حراسة الخالق،
ومعكما رضا أبيكما ،ورضائى :
ارحلا إلى كاريون حيث توجد ضياعكما،
إنى أحسّ فى أعماق بأنكما سعيدتين فى زواجكما ».
وقبّلتا يد أبيهما، ويد أمهما من بعد،
فباركهما **السّيد** و **دونيا خمينا**، ومنحاهما الرضا،
وامتطى سيدى والآخرون خيولهم، وتهيأوا للمسير،
على جياد أصيلة، فى ملابس زاهية، شاهرى السلاح،
يغمر البشر سيدى، ويشاركه البهجة كل تابعيه،
وقالت الطير لم تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة :
إن زوج بنتيه لن يمضى صافيا بلا مكدّرات،
وماذا يجدى، لقد زوجتا فعلا، ووقت الندم فات

١٢٦

السيد يرسل مع بنتيه فيلث مونيوث - الوداع الأخير - السيد يعود إلى بلنسية - القافلة تصل إلى مولينا، وابن غلبون يصحبهم حتى مدينة سالم الأميران يفكران فى قتل ابن غلبون.

-«اين أنت يا ابن أخى، أين **فيلث مونيوث**،
ابن عم بنتىّ، وتحبها من القلب والروح،
أريدك أن تذهب معها حتى نفس كاريون،
لترى مزارع بنتىّ وما يملكان من ضيَاع،
ثم تجىء من هناك بأخبار جديدة إلى **القنبيطور**».
وقال **فيلث مونيوث**: «ذلك شىء يسرنى من القلب».
وأمام **السيِّد** توقف **مينايا ألبار هانييث**:
«سنعود سريعاً إلى بلنسية العظيمة يا سيد،
وإذا أراد الله والأب الخالق،
فسوف نذهب يوماً لرؤيتهن فى أراضى كاريون».
- «فى رعاية الله أودعكما: **دونيا إلبيرا و دونيا سول**،
لتكن أعمالكما دائما مبعث شرف لنا وفخار».
فردّ صهراه: «تلك هى إرادة الله!».
كانت المشاعر عميقة حين دنت ساعة الرحيل،
بكى الأب، وبكت البنتان، بكوا جميعاً من أعماق القلب،
وبكى معهم كل فرسان القنبيطور.
- «أصغ إلىّ ابن أخى، أنت **فيلث مونيوث**،
اذهبوا إلى مولينا وبيتوا ليلتكم هناك،
سلِّم لى على صديق المسلم **ابن غلبون**. وأبلغه
أن يحسن استقبال صهرىَ، وألاّ يدع شيئاً من جهده،
وقل له: إننى مرسل بنتىّ إلى أراضى كاريون،
وما يحتاجان إليه، يقدمه لهما كأفضل ما يستطيع،

وأن يصحبها من هناك إلى مدينة سالم، حبّاً قَ،
وله عوض كل ما يصنع هدية طيبة منى».
كخلع الأظافر من اللحم كان فراقهما،
وعاد إلى بلنسية، مَن فى لحظة سعيدة طرق باب الحياة،
وتابع أميرا كاريون رحلتهما،
وما إن بلغوا شنتمرية بنى رزين حتى نزلوها مستريحين،
ثم عاودوا السير من جديد، وهمزوا خيولهم مسرعين،
وهاهم الآن فى مولينا مع المسلم ابن غلبون،
وعندما سمع المسلم بقدومهم فاض قلبه سرورا،
وخرج للقائهم فى بهجة غامرة،
يا إلهى... ياله من وقْ يسهر على راحتهم بكل ما يستطيع!
وفى صبح اليوم التالى رافقهم مودّعاً،
وإلى جانبه مائتا فارس من خيرة تابعيه،
عبروا الجبال التى يسمونها جبال لوثون،
ثم مروا بمدينة «أربخويلو» ووصلوا نهر شلون،
وفى المكان الذى يقال له أنسريرا أخلدوا إلى الراحة جميعاً،
وقدّم المسلم **ابن غلبون** هداياه إلى بنتىّ السِّيد،
ولكل واحد من أميرى كاريون جوادا،
صنع المسلم كل ذلك حبّاً فى السيد القنبيطور،
وما إن رأى الأميران الثروة الهائلة التى عليها **ابن غلبون**،
حتى فكرّا فى الخيانة، ولتنفيذها بدآ يعدان:
- «إننا سوف نترك زوجتينا بنتى السِّيد،

فإذا استطعنا أيضاً أن نقتل المسلم **ابن غلبون**،
أصبحت الثروات الهائلة التى يمتلكها لنا معاً،
وسنحافظ عليها إلى جانب ما نملك فى كاريون،
ولن يستطيع أبداً أن يثأر منا **السيِّد القنبيطور**».
وبينما أميرا كاريون يتحدثان بهذه السخافات،
مسلم من أتباع **ابن غلبون**، لاتينىّ اللغة، فهم ما يقولان[1]،
فلم يُبق على السرّ وأفضى به إلى **ابن غلبون**،
أيها القائد، خذ حذرك من هؤلاء، فأنت سيّدى.

١٢٧

ابن غلبون يودع الأميرين مهدداً

كان المسلم **ابن غلبون** شاباً قوياً وشجاعاً،
فامتطى جواده، فى رفقة مائتين من الفرسان،
وبدأ يلعب السلاح مع رجاله، ثم توقف أمام الأميرين،
وسمع الأميران من المسلم كلاماً ما يحبان أن يسمعاه :
- «لولا أنى أدعكما احتراماً لسيدى **ابن بيبار**،
لكان لى معكما شأن عبر العالم يذهب صداه،
فأردّ بنتى السيِّد الوقح،
وأنتما لا تدخلان «كاريون» إلى الأبد».

---

(١) لاتينى اللغة، أى كان يتحدث الرومانثية، وهى عامية مسيحيى الأندلس، ومشتقة من اللاتينية، وليست اللاتينية نفسها، لأن هذه كانت قد انحسرت عن ألسن الناس فى هذا العصر، ولم تعد أداة الحديث.

١٢٨

ابن غلبون المسلم يعود إلى مولينا متألما لتعاسة بنتى السيد - القافلة تدخل مملكة قشتالة - وينام أفرادها فى غابات كوربس - فى الصباح يبق الأميران وحدهما مع زوجتيهما، ويستعدان لقتلهما - تضرعات ضائعة من دونياسول - وحشية الأميرين

- قولا لى، يا أميرى كاريون، أى شر لقيتما منى؟
استضفتكما مخلصاً، وأنتما تتآمران على قتلى،
هنا أدعكم، تاركا لكم، ملعونة خيانتكم،
سأعود الآن، يكفينى رضاكما، **يادونيا إلبيرا ويادونيا سول،**
لا تهمنى كثيرا الشهرة التى عليها أميرا كاريون،
قضاء الله وإراده، سيّد العالم كله،
أن يرضى بهذا الزواج السيّد القنبيطور!».
وما إن أكمل المسلم حديثه حتى قفل راجعاً،
وتابع مبارزته بالسلاح وهو يعبر نهر شلون
وكرجل عاقل آثر أن يعود إلى مولينا حيث يقيم،
وبعده رحل أميرا كاريون عن أنسريرا،
يعدّون السّير طول النهار وعلى امتداد الليل،
تركوا أتيبيتا على يسارهم، صخرة شديدة الصلابة،
وخلفوا وراءهم بعيداً سلسلة جبال ميبدس،
وعبر جبال مونتس كلاروس همزوا خيلهم،
وعلى الشمال منهم كانت مدينة جريثا، وعمرها بنو عم قديماً،

والكهوف التى سُجنتْ فيها «إلفا» من قبل،
تجاوزا سان استيبان على يمينهم وتوقفوا جميعاً يتأملون،
ثم دخل الأميران غابات كوريس،
الجبال شاهقة، والأشجار مرتفعة، تعترض أغصانها سير السحاب،
والحيوانات المفترسة طليقة تغدو وتجيء،
ووجدوا بستانا يتوسطه نبع صاقّ الماء،
فأمر أميرا كاريون بالنزول ونصب الخيام،
وأخلدوا مع رفقتهم إلى الراحة، فأمضوا الليل هاجعين،
وكل أمير احتوى زوجه بين ذراعيه، يبادلها الحب والغرام.

ولكن ما أسوأ ما أقدما عليه حين تصرّم الليل وأشرقت الشمس!
أمرا بوضع الكثير مما يحملان على ظهور البغال،
وبطيّ الخيام التى اتخذوها سكنا سحابة الليل،
وأمرا الحاشية كلها بأن تمضى، وتخلّفا عن المسير،
ذلك ما أمر به أميرا كاريون،
لم يتخلف معهما أحد من النساء أو الرجال،
غير زوجتيهما فحسب، **دونيا إلبيرا و دونيا سول**،
لأنهما يريدان أن يبقيا معهما وحيدين،
أخيراً رحلوا كلهم، وتخلف الأربعة وراء الجميع،
وفكّر أميرا كاريون فى شرور كثيرة:
«أصغيا جيداً يا زوجتينا، **دونيا إلبيرا ودونيا سول**:
أنتما هنا، فى هذه الجبال الموحشة المسبعة، على موعد مع العذاب،
سنرحل اليوم ونترككما وحيدتين،

ولن يكون لكما أبدا نصيب فى أرض كاريون،
وأخبار كما هذه سوف تبلغ **السّيد القنبيطور**،
وبهذا نثأر منه، ننتقم لقصة الأسد الجسور».
هناك نزعا عنهما العباءات والملابس،
وتركاهما عاريتين إلّا من قميص وإزار،
وحمل الخائنان، وقد اسود ضميرهما، الكلاليب،
يحملان فى أيديهما أحزمة قوية وخشنة،
وعندما رأت السّيدتان هذا تحدثت **دونيا سول**:
«بحق الله نرجوكما، **دون دييجو، ودون فرناندو**،
معكما سيفان قويان، وحدّهما بتار،
أحدهما يسمى «كولادا» والآخر يطلقون عليه «تيثون»،
فاقطعا رأسينا، نموت شهيدتين نحن الاثنتين،
وتصبح قصتكما حديث المسلمين والمسحيين، حكاية الناس أجمعين،
وما ستفعلان بنا لا نستحقه نحن، لا.
وارحمانا مما تبيتان من نوايا سيئة، لا تكونا قاسيّين،
وإذا جلدتمانا لطخ العار شرفكما إلى الأبد،
وستدفعان الثمن مواجهة قضائية، أو فى مجلس البلاط».
وذهبت تضرعات السيدتيْن عبثا، لم تُجدهما شيئا.
بدأ الأميران يجلدان زوجتيهما
قيداهما بالأحزمة دون شفقة أو رحمة،
وثبتوا الكلاليب الحادة منهما، فى الموضع الأكثر إيلاما،
ومزّقا من السيّدتين كلتيهما قميصيهما واللحم،

فتفجر دمعها صافيا، وروّى كل الإزار،
وأحستْ السيّدتان بغصة الألم فى أعماق القلب.
يا له من حظ عظيم لو أراد الخالق،
أن يطلّ فجاءة **السيد القنبيطور!**.
جلداهما طويلا، ثم تركاهما فاقدى الشعور،
وكل ملابسهما، الأزر والقمصان، غارقة فى الدماء،
وأحس أميرا كاريون بالتعب من مواصلة الجلد،
وكان بينهما سباق شديد : مَن يجلد أفضل من الآخر،
ولم تستطع **دونيا إلبيرا ولا دونيا سولا** أن تنطقا بكلمة واحدة،
وأخيراً تركهما أميرا كاريون فى الغابة لتموتا وحيدتين.

١٢٩

الأميران يتركان زوجتيهما

جرّداهما من ملابسهما، وانتزعا كل ما يحملان من فراء،
وتركاهما بين الحياة والموت فى قميص وإزار،
طعاماً لطيور الجبل، ولما فى الغابة من الحيوان،
تركاهما تموتان، تذكّر، لا لكى تنعما بالحياة،
ياله من حظ، لو أطل فى هذه الساعة **السيد روى دياث!**

١٣٠

تركهما أميرا كاريون لتموتا،
ومامن واحدة فيهما تستطيع الكلام،

ورحل الأميران، عبر الجبال، يتبادلان الزهور والابتسام.
«لقد ثأرنا الآن لزواجنا،
لم تعُودا تصلحان لنا، كلا... ولا حتى عشيقات راجيات،
لاتصلحان زوجتين لنا، ليستا من بنات العائلات،
وبما فعلنا نكون قد انتقمنا لما فى قصة الأسد من سخريات!

١٣١

فيلث مونيوث يشك فى الأميرين - ويقفل راجعا ليبحث عن بنتى السيد - فيلث ينعشهما ويحملهما على جواده إلى سان استيبان دى غرماج - السيد يعلم بما تعرض له من إهانة - مينايا يرحل إلى سان استيبان ليعود بالسيدتين - لقاء مينايا مع ابنتى عمه

تابع أميرا كاريون رحلتهما مزهوين،
ولكنى الآن أريد أن أحدثكم عن ذلكم **فيلث مونيوث**،
وكان ابن أخ السيد القنبيطور،
لقد أمراه بأن يتقدم، أمر لم يحظ منه بالرضا أو القبول،
وعبْر الطريق حيث يمضى خفق قلبه بهاجس غريب،
فانتحى جانباً، ممتطياً صهوة جواده، مبتعداً عن الآخرين،
واختفى **فيلث مونيوث** فى جبل معشوشب،
يرى ماذا يحدث لبنتى عمه،
يعرف ماذا يصنع بهما أميرا كاريون،
فجأة رآهما قادمين، وسمع ما يدور بينهما من حديث،
بر أنهما لم يرياه ولا شكاً أنه يختفى هناك،

واعلم جيداً ،أنهما لو عرفاه لما استطاع أن يفلت من الموت،
همز الأميران جواديهما وانطلقا فى طريقهما،
ومتعقباً آثارهما إلى الوراء مضى **فيلث مونيوث،**
فوجد بنتى عمه كلتيهما، بين الحياة والموت،
وصاح بهما : « ابنتى عمى، ابنتى عمى !»، ثم ترجّل،
ربط فرسه من شكيمته فى شجرة، ونحوهما تقدم مسرعاً،
« يا ابنتى عمى، يا ابنتى عمى، **دونيا إلبيرا ودونيا سول،**
يا لقبح ما صنع أميرا كاريون !
لن يفلتا من العقاب جزاء ما ارتكبا بإذن الله ».
ثم عاونهما على أن تستردا وعيهما،
كانتا فاقدتى الشعور تماما، لا تنطقان ولا بكلمة،
فراح يناديهما وقلبه ممزق،
ويصيح بهما : « ابنتى عمى، دونيا إلبيرا ودونيا سول..
استيقظا ابنتى عمى، انهضا بحق الخالق،
هيّا بنا، والدنيا نهار، قبل أن يظلم الليل،
حتى لانصبح طعاماً لما فى الجبل من حيوان مفترس،
وشيئاً فشيئاً استردتا وعيهما، **دونيا إلبيرا و ودنيا سول،**
فتحتا عيونهما ورأتا **فيلث مونيوث.**
– « تماسكا ابنتى عمى، حُباً فى الله !
إذا لم يجدانى أميرا كاريون فى القافلة،
سريعاً ومتحمسين، سوف يبحثان عنى فى كل مكان،
وإذا لم ينقذنا الله فسوف نموت هنا جميعاً ».

وفى ألم مرير تكلمت **دونيا سول**:

«سوف يكافئك، يا ابن عمى، عليه أبونا **القنبيطور**،

حبًا فى الخالق أعطنى قليلا من الماء».

وبقبّعة كان يحملها **فيلث مونيوث**،

جديدة ولامعة، جاء بها من بلنسية،

اغترف من الماء ما استطاع، وقدّمه لبنتى عمه

كانتا منهكتين، تحاملتا كثيراً، لتشربا من الماء،

ترجاّهما الجلوس طويلا، فاستجابا له بعد جهد،

وأخذ يشجعهما قليلا قليلا، ويرفع من روحهما،

حتى إذا تحسنتا، أخذهما كلتيهما

بين ذراعيه، وسريعاً وضعهما فوق فرسه،

وغطّاهما بعباءته هما الاثنتين،

ثم أخذ فرسه من شكيمته ومضى بهما،

وعبْر غابات كوريس كانوا ثلاثتهم فحسب،

وبين الليل والنهار تركوا الجبال، وخلّفوها وراءهم،

وأخيراً بلغوا فى طريقهم نهر دويره،

وهناك تركهما فى قلعة **دونيا أراكا**،

وذهب فيلث مونيوث إلى سان استبان دى غرماج،

فالتقى فيها مع **دييجو تييث**، واحد من أتباع **ألبار هانييث**،

وعندما سمع القصة حزن لها من القلب،

ثم أعد ركائب وملابس ذات قيمة ومناسبة،

وذهب ليصحب **دونيا إليبرا ودونيا سول**.

وجاء بهما إلى سان استيبان، وفيها نزلا،
وقام على خدمتهما بما استطاع، لم يترك من جهده شيئاً،
إنّ سكان سان استبان دائماً أناس شرفاء،
ما إنْ عرفوا ما حدث حتى أسفوا له من القلب.
وأسرعوا يقدمون لبنتى السّيد كل ما يستطيعون،
وظلتا فى المدينة إلى أصبحتا سليمتين،
بينما أميرا كاريون يمضيان فى رحلتهما مزهوّين،
وعبر تلك الأراضى شاعت القصة وعرف الناس الخبر،
وأحسَّ الملك الطيّب دون **ألفونسو** بالحرج عميقاً ومحزناً.
وذهب الرسل إلى بلنسية المدينة العظيمة،
وعندما أُخبر سيدى **القنبيطور** بما حدث،
تأمل الأمر طويلا وفكّر؛
ثم رفع يده، وأمسك بلحيته:
-«شكراً للمسيح، سيّد العالم،
أما وقد ارتكب هذا الجرم أميرا كاريون،
فبحق هذه اللحية التى لم يستطع مخلوق أبداً أن يمسها،
لن يحقق أميرا كاريون ما نوياه من إهانتى،
وسأزوج بنتى بمن هما أفضل منهما».
غمر سيدى وكل بلاطه ألم عميق،
وحزن **ألبار هانييث** من أعماق القلب والروح،
ورحل **مينايا ألبار هانييث**، ومعه **بير برمودث**،
ورافقهما **مرْتين أنتولينييث**، البرغشى الوفى،

obeikandl.com

ومائتا فارس أمر السيِّد أن يكونوا معهم،
وأمرهم أن يواصلوا السير ليل نهار، وشدّد عليهم فى الأمر،
لكى يحضروا بنتيه إلى بلنسية العظيمة.
ودون تأخير، وضعوا ما أراد سيّدهم موضع التنفيذ،
ساروا مسرعين طوال الليل حتى الفجر،
وصلوا غرماج، قلعة قوية متينة البنيان.
وللحق استراحوا فيها ليلة واحدة،
وحتى سان استبان وصلت الأخبار،
بأن **مينايا** وصل ليأخذ بنتى عمه معه،
وأهل سان استبان، وهم رجال أوفياء،
استقبلوا **مينايا**، وكل الفرسان الذين رافقوه،
وفى هذه الليلة قدموا **لمينايا** خير ما عندهم من هدايا،
فلم يقبل منها شيئاً، ولكن شكرهم عليها كثيرا:
«شكراً، يا رجال سان استبان، أيها العاقلون،
على ما قدمتم لنا من مساعدة ساعة المحنة،
يشكركم عليه كثيراً، من يقيم هناك، سيدى القنبيطور،
وأمامكم، هنا بينكم، أود أنا أيضاً أن أشكركم عليه،
وأرجو إله السماء أن يعوضكم خيراً منه».
أحس الجميع بسرور بالغ لما وجدوا من شكر وعرفان،
وعندما انتشر الليل آوى كل واحد إلى مضجعه،
وذهب مينايا إلى حيث يرى بنتى عمه،
فيه ركزتا أبصارهما، **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**:

- «نشكرك كثيراً عليه، كما نشكر الخالق نفسه،
واشكرْه أنت أيضاً، لأننا مازلنا على قيد الحياة».
- «خلال أيام الراحة وستمضيانها فى بلنسية العظيمة،
ستكون الفرصة مواتية لتحكيا لنا قصة هذه المأساة».

١٣٢

مينايا مع بنتى عمه يرحل من سان استبان - السيد يخرج للقائهم

بكوا من عيونهم، السيدتان و **ألبار هانييث**،
حينئذ بدأ **بير برمودث** يحدثهما على هذا النحو:
«يا **دونيا إلبيرا**، ويا **دونيا سول**، لا تنشغلا كثيراً،
لقد عدتما صحيحتين وسالمتين دون أى أذى،
فقدتما زواجاً طيباً، زواج أفضل منه فى الطريق،
وستريان اليوم الذى نثأر لكما فيه!».
قضوا الليل هناك، وكانوا جميعاً فرحين،
وفى صبح اليوم التالى عاودوا السير من جديد،
وأهل سان استبان حولهم يهرولون مودعين،
رافقوهم حتى نهر «أمور»، وكانوا برفقتهم مسرورين،
هناك ودعوهم، ثم قفلوا إلى بيوتهم عائدين،
ومضى **مينايا** مع السيدتين مسرعاً ينهب الطريق،
عبروا القصيبة، وعلى اليمين تركوا غرماج،
واتجهوا نحو «بادوا دى ريْ»، وبعدها واصلوا المسير،
وفى قرية «برلانجا» قضوا الليل هاجعين،

فى صبح اليوم التالى بدأوا الرحلة مبكرين،
ثم أمضوا الليل فيما يدعى مدينة سالم مستريحين،
حتى إذا طلع الفجر قطعوا المسافة بينها وبين مولينا فى نهار،
وفيها المسلم **ابن غلبون** سوف يفرح بهم من القلب،
خرج للقائهم راغباً، ومعه جمع من تابعيه،
وحُباً فى سيدى أولم لهم عشاء فاخراً،
تحركوا يقصدون بلنسية، يذهبون إليها مباشرة،
وبلغت الرسالة من فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة.
فامتطى صهوة جواده وخرج للقائهم،
فياض البشر خرج إليهم وهو يلعب بالسلاح،
سارع سيدى إلى احتضان بنتيه،
قبَّلهما كلتيهما، وملأت البسمة شفتيه:
«وصلتما، بنتىّ؟ حفظكما الله من كل سوء!
أنا قبلتُ تزويجكما بنتىّ، ما عرفت كيف أقول: لا.
والآن أدعو الخالق، ذلك الذى فى السماء،
أن يوفقكما إلى الزوج الصالح، عندما تعودان إلى الزواج،
فيما يتصل بصهرىّ أميرى كاريون، يا إلهى، مكنّى من الانتقام!».
قبلت البنتان يد أبيهما،
وهم يلعبون بالسلاح، عادوا إلى المدينة مبتهجين،
وأمهما، **دونيا خيمينا**، تطل الفرحة من عينيها، رأتهما قادمتين.
لم يرد أن يتأخر أكثر، من فى لحظة طيبة جاء إلى الحياة،
يريد أن يبعث برسالة إلى **ألفونسو** ملك قشتالة.

١٣٣

السيد يرسل مونيو جوستيوث يطلب من الملك القصاص - مونيو يجد الملك فى سهاجون ويعرض عليه الرسالة - الملك يعد بالقصاص

- « أين أنت، **مونيو جوستيوث**، يا تابعى الوفى؟
فى لحظة طيبة ربيتك فى حاشيتى أيها الطيب جوستيوث!
احمل رسالتى هذه إلى **ألفونسو** ملك قشتالة،
راجياً منه أن تقبل لى يده، من القلب والروح،
- « أنا كتابع له، وهو سيدى -.
الإساءة التى ألحقها بى أميرا كاريون،
سوف تُحزن من الملك القلب والروح،
هو من زوج بنتىّ، فما شئتُ اعتراضاً.
والآن وقد تركاهما مهانتين بلا شرف،
فإن الإهانة التى ارتكباها، إذا كانت تمسنا شيئاً،
فكلها، صغيرة أو كبيرة، موجهة إلى سيدى.
حملا ثرواتى، ثروات هائلة ونادرة،
شىء، إلى جانب ما أشرت من إهانة، عمّق آلامى.
أطالبكم بدعوتهما إلى مواجهتى فى جمع تصائل، أو أمام مجلس البلاط،
لآخذ منهما بحق، أميرى كاريون،
لأن الحقد فى أعماق قلبى كبير».
رحل **مونيو جوستيوث** على ظهر جواده مسرعاً،

ومعه فارسان، يقومان على خدمته كما يريد،
وعدد من تابعيه رياهم يقومون على خدمة الخيل،
تركوا بلنسية وأغذوا السير ما واتاهم الجهد،
واصلوا الرحلة ليل نهار دون راحة،
فوجدوا الملك دون **ألفونسو** فى مدينة سهاجون،
إنه ملك قشتالة، وأيضاً ملك ليون،
وملك أشتوبارش، وعاصمتها سان سلفادور،
وحتى فى شنت ياقب نفسها، كلهم يعترفون به سيّدا،
وحتى كونتات جليقية، يدخلون فى زمرته ومن تابعيه،
وما إنْ ترجل ذلك المدعو **مونيو جوستيوث**،
حتى دعا القديسين خاشعاً، وتضرع إلى الخالق،
ثم توجه إلى القصر حيث مجلس البلاط،
مضى إليه، وفى رفقته الفارسان، رجلان من خيرة تابعيه.
مرَّ بين رجال الحاشية، وانتهى حيث المجلس،
فما إن رآهم الملك، حتى ثبت بصره فى **مونيو جوستيوث**،
ونهض واقفاً، يود استقبالهم محتفياً،
فى حين أن **مونيو** ورفاقه جثوا أمام الملك **ألفونسو**،
قبل قدميه **مونيو جوستيوث**، ثم نهض واقفاً :
- « الإجلال لمن ممالك كثيرة بايعته سيداً !
السيد القنبيطور يقبل يديكم والقدمين،
إنه تابعكم، ويعترف بكم سيداً عليه،
لقد زوجتم بنتيه من أميرى كاريون،

كان زواجاً مشرفاً، فهكذا أردتموه،
وأنتم أعلم بالشرف الذى حزناه من هذا الزواج،
وكيف أهاننا أمراء كاريون،
أساءا بشدة إلى بنتى السيد القنبيطور،
جلداهما بخزى، وتركاهما دون شرف عاريتين،
تخليا عنهما فى غابات كوريس، مغشيًّا عليهما بين الحياة والموت،
تحت رحمة طيور الجبل الجارحة، وحيواناته المفترسة،
ولكنهما الآن سليمتين فى بلنسية العظيمة،
ولهذا يقبل يديكم، تقبيل التابع للسيِّد،
ويطلب منكم دعوة أميرى كاريون إلى مواجهة قضائية أو فى البلاط،
لقد أُهنَّا فى شرفنا، وإهانتكم بعد أشد،
ويرجوكم أيها الملك أن تشاركوه آلامه، وأنتم تعرفون كل شىء،
وأنْ تمكنوا يدى من أميرى كاريون، يأخذ بحقه منهما»،
وصمت الملك طويلا، وفكر عميقاً،
«أقول لك الحق، إن الأمر أحزننى من القلب،
وفيما تقول كل الحق أيضاً، **مونيو جوستيوث**،
أنا زوَّجتُ بنتيه من أميرى كاريون،
قمت به لصالحهما، مفكراً فى مستقبلهما، متمنياً لهما الخير،
لكم تمنيت اليوم أن هذا الزواج لم يحدث أبداً،
إنى أقاسم السيد آلامه، ومن القلب،
وسأعاونه أن يأخذ بحقه وليساعدنى الخالق،
ما أبعد ما حدث عن الخيال والتفكير!

obeikandl.com

سوف يمضى رسلى عبْر كل مملكتى،
ينادون باجتماع مجلس البلاط فى طليطلة،
وسيدعى إليه كل الكونتات والأمراء،
وأصدرت أمرى بأن يحضره أميرا كاريون،
لكى يردا قانوناً على مطالب السيد القنبيطور.
قل له ألاّ يأسى كثيراً، لأنى سارقب الأمر مهتماً».

١٣٤

الملك يدعو مجلس البلاط فى طليطلة

قل للقنبيطور، مَن فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
من الآن، وحتى سبعة أسابيع، أن يستعد مع تابعيه،
ليأت إلى طليطلة داخل الأجل المحدد،
لقد دعوت مجلس البلاط إلى الاجتماع حبّاً فى السيد،
سلّم عليهم جميعاً، وألا يشغلهم من الأمر شاغل،
فمن كل ما حدث سيخرجون شرفاء منتصرين».
ودّعهم مونيو جوستيوث، وبدأ رحلته عائد إلى السيد،
فالملك، كما قال، سوف يتولى متابعة الأمر بنفسه،
لا شىء يقف دون **ألفونسو** القشتالى وما يريد،
بعث برسائل إلى ليون وشانت ياقب،
وإلى البرتغاليين، وأخرى كثيرة إلى جليقية،
وإلى نبلاء كاريون، وإلى الفرسان القشتاليين،
يخبرون الجميع بأن مجلس البلاط سينعقد فى طليطلة،

بعد ستة أسابيع، تلتقون هناك مجتمعين،
ومن لا يذهب إلى الاجتماع، لن يُعد من رعايا الملك المخلصين،
وهكذا عبْر كل أراضيه، جميعاً أخذوا يتدبرون الأمر مفكرين،
مقررين أن يطيعوا الملك، وألا يعصوا له أمراً.

١٣٥

أميرا كاريون يرجوان الملك عبثا أن يعدل عن دعوة مجلس البلاط - اجتماع المجلس - السيِّد آخر من وصل - الملك يخرج للقائه

أحس بالهلع أميرا كاريون، وشعرا بالذل،
من مجلس البلاط الذى دعا الملك إلى عقده فى طليطلة،
وامتلأ خوفاً من أن يحضره سيدى القنبيطور،
فتشاورا مع أسرتهما عن هذه القضية الخطيرة،
ورجوَا الملك أن يقبل عذرهما عن حضور الاجتماع،
فقال الملك: «لن أقبله، ذلك شىء لم يأمرنى به الله!
ويجب أن يحضر اجتماع البلاط سيدى القنبيطور،
وأن يطالب بحقه، فقد أهنتماه أنتما الاثنان،
ومن لا يقبل هذا، أو يتخلف عن الاجتماع،
فليخرج من مملكتى، وسأنزع عنه أفضالى ورضاى».
عرف أميرا كاريون أنه لا مناص من تنفيذ أمر الملك،
فاجتمعا إلى أقاربهم الكثيرين يتدارسون الأمر،
حضر الكونت **دون غرسية**، وشارك باهتمام فيما دار من نقاش،
كان عدو السيد اللدود، ويفضل دائماً إهانته وأذاه،

سمع الأميران نصائحه، ووعيا ما قيل فى الاجتماع.
انتهى الأجل، وحان الاجتماع، فذهبا إلى البلاط،
وكان من أوائل الحاضرين الطيب الملك دون **ألفونسو**،
ثم الكونت **دون إنريك** والكونت **دون رامون**،
- وهذا الأخير أبو الإمبراطور الطيب -
ووصل الكونت **دون فرويلا**، وبعده الكونت دون **بربون**.
وجاء خبراء القانون من كل أنحاء المملكة،
ومن قشتالة جاء خير مَن فيها:
الكونت **دون غرسية**، ويدعى «الكريسبو دى جْرَينون»
وألبار دياث حاكم مدينة «أوكا»
وأنسور جنثاليث، و **جنثالبو أنسورث**،
وبدرو أنسوريث، إذا كنت تعلم، هنَاك يقترب من الاجتماع،
وأخيراً جاء **دون دييجو** و **دون فرناندو**، حضرا معاً،
فى جمهرة كبيرة من أتباعهما، وفى جانب جلسوا متوثبين،
وقد بيتوا النية على إهانة سيدى القنبيطور.
فرسانٌ كثيرون جاءوا من كل حدب وصوب.
وحتى اللحظة لم يصل بعد، مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
انزعج الملك من التأخير، وكان ضائقاً به،
ولكن أخيراً، فى اليوم الخامس، وصل سيدى **القنبيطور**،
فأرسل **ألبار هانييث** يتقدمه،
لكى يقبل يَدَىْ الملك سَيده
ويعلمه، بأنه فى هذه الليلة سيراه،

فما إن عرف الملك حتى سُر من القلب،
وفى الحال امتطى صهوة فرسه، وخرج مع الحاشية
لكى يلقى مرحبًّا مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة.
جاء **السيد** ورجاله، فى خير ما عندهم من خيل وثياب وسلاح،
والجيش الذى يصحبه جدير به كقائد،
وما أن وقع عليه نظر الملك دون **ألفونسو**،
حتى ترجل **السيد القنبيطور** عن جواده، فى الحال،
ثم تقدم خاضعاً، أراد أن يقدم لسيده المزيد من التشريف،
وما إن رآه الملك حتى تحدث إليه فى الحال:
« بحق القديس إسيدورو دع هذا لا تفعله،
اركب جوادك يا سيد، وإلا سببتَ لى الكثير من الضيق،
يَكفى سلاماً أن نتبادل القبل، من القلب والروح.
ما أملكَ أنتَ، أحسستُ أنا بجرحه فى أعماق القلب،
لعل الله ينتقم اليوم لشرفك، فتأخذ بحقك ، فى مجلس البلاط،
ورد سيدى، القنبيطور الطيب، هامساً: آمين!
ثم قبل الملكَ فى يده أولا، وفى فمه من بعد.
- « حمداً لله، على أنى استطعت أن أراكم سَيِّدى،
خاضعاً أمامكم، فى حضرتكم، وأمام الكونت **رامون**،
وأمام الكونت **دون إنريك**، وكل الذين هنا،
فليحفظ الله أصدقاءنا، وأنت قبل الجميع أيها الملك؛
زوجى، **دونيا خيمينا**، سَيدة وفية،
تقبل يديكم، هى وبنتاى الاثنتان،

جميعاً نرجوكم سَيدى أن تحسوا ما لحقنا من إهانة وعار،
فرد الملك : « ذلك ما أفعل، يعلم الله ».

١٣٦

السيد لا يدخل طليطلة - ويمضى الليل متعبداً فى سان سرياندو

عاد الملك إلى مدينة طليطلة،
ولم يرد السَّيد أن يعبر نهر تاجو فى هذه الليلة :
« أطلب منكم أيها الملك فضلا، حفظكم الله !
أسرعْ سَيدى، مع حاشيتك، وعُدْ إلى المدينة،
وأنا مع رجالى، سنقضى الليل فى سان سرياندو.
بقية رفاقى سيصلون الليلة.
ومعهم سنبقى فى هذا المكان المقدس متعبدين،
وغداً صباحاً سوف أنتقل إلى المدينة؛
سأذهب إلى البلاط، وأكون فيه قبل الغداء ».
فقال الملك : « ذلك شىء يسعدنى حقا »
عاد الملك دون **ألفونسو** إلى طليطلة.
وأقام سيدى **روى دياث** فى سان سرياندو.
أمر بإضاءة المذبح وإشعال القناديل،
أراد أن يمضى الليل ساهراً يتعبَّد فى هذا المكان المقدّس،
يرجو الخالق ويناجيه سراً فى صفاء،
وما إن جاء الصباح حتى تهيأ الجميع للمسير.

١٣٧

استعداد السيد فى سان سرباندو لكى يذهب إلى البلاط - السيد يذهب إلى طليطلة ويدخل البلاط، الملك يقدم له مقعداً على منصته إلى جواره. السيد يعتذر - الملك يفتتح الجلسة - ويعلن السلام بين المتخاصمين - السيد يعرض حقه، ويطالب بالسيفين «كولادا» و «تيثون» - أميرا كاريون يردان السيفين - السيد يعطيهما لبدرو برمودث ومرتين أنتوليننيث - طلب آخر للسيد : ما دفعه من أموال لتجهيز بنتيه - الأميران يواجهان صعوبة فى دفعها

مع الفجر سمعوا القداس وأنشدوا تراتيل الصباح،
وأنهوا صلواتهم قبل أن تطلع الشمس،
ثم قدموا عطاياهم، هدايا كلها من الغالى الثمين.
- «**مينايا ألبار هانييث!**... أنت ساعدى القوى،
أنت والمطران **دون خرونيمو**؛ تكونان معى فى صحبتى؛
وأيضاً **بدرو برمودث**، ومثله **مونيو جوستيوث**،
ومرْتين أنتولينييث، ذلك البرغشى ذو الوفاء،
وألبار ألباروث، ثم **ألبار سلفادورث**،
ومرتين مونيوث، مَن فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
ويأتى معى **مال أندا**، رجل عالم فى القانون،
ثم **جليندو غرسية**، الطيب القادم من أرجون،
ونكمل العدد مائة، من خيرة أتباعى الأوفياء،

تحت الدروع ارتدوا ملابس مريحة، كى لا تحسوا وطأة الحديد»
وعليها صدار أبيض، ساطع مثل ضوء الشمس،
وفوق الصدار الفراء الفاخر، والعباءات الزاهية،
ولْتخْفوا أسلحتكم.. شدُّوا أحزمتكم جيداً،
ثم خبئوا السيوف تحت العباءات، مصقولة وبتّارة،
وعندما يتم كل شىء على هذا النحو أقتحم مجلس البلاط،
لكى أطالبه بحق، وأبسط أمام الجميع وجهة نظرى،
فإذا أحب أميرا كاريون النزال،
فمع هؤلاء المائة من فرسانى، سوف ألقاهما دون أدنى خوف».
وفى صوت واحد ردّوا جميعاً: «ونحن ياسيد ننتظر ذلك اليوم».
ثم أسرعوا إلى سلاحهم يستعدون على نحو ما أمرهم به.
ودون أن يتوقف؛ مَن فى لحظة سعيدة طرق باب الحياة،
لبس جواربه، وُنسجت من خيوط رقيقة،
وانتعل حذاءه، وصناعته جميلة ومتينة ودقيقة،
وارتدى قميصا أبيض ناصعا فى مثل ضوء الشمس،
أزراره بعضها من الذهب، والبعض الآخر من الفضة،
وأكمامه تمسك بالمعصم مضبوطة، استجابة لما أمر به،
والصدار الذى ارتداه فوقه من حرير نادر الصنع،
وماحُلِّى به من ذهب يلمع بريقه عبر كل الجهات.
وعليه جلد قرمزى، حُلاَه صيغت من ذهب،
على نحو ما يلبس دائما سيدى القنبيطور.
ثم غطىّ رأسه بكوفية، ذات نسج رقيق:

حُلِّيت أطارفها بالذهب، فى زخارف رُسمت بفن،
لكى تحمى رأس الطيب السيد القنبيطور،
أما لحيته وقد استطالت كثيرا فقد أحكم سترها،
كذلك ارتدى ملابسه، ليكون مهيأ لكل أمر،
وفوق الجميع عباءة فضفاضة غالية الثمن،
فى هيئته هذه حاز إعجاب كل منْ رأوه،
ومع المائة فارس الذين صحبوه تهيأ للمسير،
امتطوا الخيل وخرجوا من سان سرباندو مسرعين،
نحو مجلس البلاط كانت وجهة السَّيد،
وأمام الباب الخارجى ترجل ماهراً وقوياً،
ودخل سيدى مع كل رجاله، وقورا وجادا،
هو فى الوسط، وحوله الفرسان المائة،
وعندما رأوه داخلا، مَن فى لحظة سعد طرق باب الحياة،
نهض واقفا الملك الطيب دون **ألفونسو**،
ومثله صنع الكونت **دون إتريك** والكونت **دون رامون**،
وهكذا، ليكن فى علمك، كل مَن فى المجلس تابعوا سيدهم.
وفى إجلال بالغ، استقبلوا مَن وُلد فى ساعة طيبة.
لم يرد أن ينهض **غرسية أوردونييث**، المدعو «كريسبو دى جرانيون»،
ولا الذين جاءوا عصبة فى حاشية أميرى كاريون.
وأخذ الملكُ سيدى بكلتا يديه :
«تعالَ هنا، اجلس إلى جانبى، أيها القنبيطور،
على هذه الأريكة، بعض ما أرسلت لى من هدايا،

إذا كان وجودك قد آلم البعض فأنت أرفع منا قدرا».
وألقى فاتح بلنسية كلمات يشكر بها الذين شرّفوه:
«ابق مكانك، لا تتحرك فى أريكتك، فأنت ملك وسيّد،
هنا سأجلس أنا، مع رجالى هؤلاء»،
ما قاله السيّد، أبهج ومسّ منه شغاف القلب.
ثم جلس السيّد على أريكة مستديرة،
وحوله المائة فارس أحاطوا به يحرسونه.
وجميع الذين حضروا مجلس البلاط ركزوا أبصارهم فى القنبيطور،
يتأملون لحيته الغزيرة، وقد استطالتْ فغطاها حفاظا عليها،
وكل تصرفاته ومواقفه توحى بأنه رجل فيما يفعل أويقول،
ولم يستطع أميرا كاريون أن ينظرا إليه خجلا.
حينئذ نهض واقفا الملك دون **ألفونسو**:
«اسمعونى أيها الفرسان، حفظكم الخالق!
دعوت مجلس البلاط مرتين منذ أن توليت الملك،
الأولى كانت فى مدينة برغش، والثانية فى كاريون،
أما الثالثة، فنعقدها الآن فى طليطلة، وأنتم شهودها،
حُبًّا فى سيدى، مَن فى لحظة سعد طرق باب الحياة،
لكى يأخذ بحقه من أميرى كاريون.
لقد ألحقا به أذى كبيرا، وأهانا شرفه كما تعلمون،
وسيكون القاضيان: الكونت **دون إنريك** والكونت **دون رامون**،
وعدد آخر من الكونتات، ليسوا من عصبة أميرى كاريون،
أصغوا إلىّ كلّكم جيدا، فأنتم رجال فاهمون،

نريد أن نحكم بالقانون، لا أودّ أن يلحق الظلمُ أىَّ مخلوق،
وسنلزم الجانبين بالسلام منذ اليوم،
وأقسم لكم بسان إسيدورو أن من يشهر السلاح فى بلاطى
سوف أنفيه من مملكتى، وأحرمه من أفضالى.
إن سيدى القنبيطور سيتقدم يطلب حقه،
وكما نعرف يجب أن يرد عليه أميرا كاريون».
قبّل سيدى يد الملك، ثم نهض واقفا:
«أشكركم كثيرا، كسيّد وملك،
لأنكم دعوتم مجلس البلاط هذا حُبًّا قِ،
إليكم حقوق التى أطالب بها أميرى كاريون:
أن يتركا بنتى أمرٌ لا يمس شرف،
لأنك أيها الملك مَن زوّجهما؛ وتعرف ما يجب أن تقوم به،
ولكن عندما تركا بلنسية العظيمة، ومعها بنتاى،
وكنت أحب صهرىّ من الروح والقلب،
أعطيتهما سيفىّ النادرين، «كولادا» و«تيثون»،
- وقد غنمتهما فى معاركى فارسا ورجلا -
ليزدادا بهما شرفا، يضعانهما فى خدمتكم.
وعندما تركا فى غابة كوربس بنتىّ **إلبيرا وسول**،
قطعا أواصر مابيننا من ود، وفقدا فى قلبى كل حب،
فليردا إلىّ إذن سيفىّ، فلم يعودا صهرىّ بعد».
حينئذ رد القضاة: «معك الحق فى كل ماقلت».
فرد الكونت **دون غرسية**: «سنعطى رأينا فيما قال».

فى هذه اللحظة خرج أميرا كاريون، وانتحيا جانبا،
ومعهما كل أقربائهما، والعصبة التى جاءت معهما،
فى عجلة حاولوا أن يركزوا وجهة نظرهم :
« بالرغم من الجمائل الكبيرة التى خصنا بها **السيِّد القنبيطور**،
إذا لم يطالبنا اليوم بما لحق بنتيه من إهانة،
فإن دون **ألفونسو** يمكن أن يكون خير وسيط،
نعطيه سيفيه، ولم يطلب أكثر منهما شيئا،
فإذا أصبحا معه بين يديه، رحل وقال لمجلس البلاط : وداعا !
لم يعد له أى حق آخر يطالبنا به هذا السيِّد القنبيطور،
وعندما انتهيا إلى هذا الرأى عادوا للاجتماع :
« رضاك أيها الملك دون ألفونسو، فأنت سيدنا !
لا نستطيع أن ننكر عليه ما قال، وسنعطيه سيفيه،
لأنه طلبهما ملحاً، شديد الرغبة فى استرجاعهما،
سنقدمهما له سريعاً، وفى مجلسكم أمام ناظريك ».
أخرج الأميران السيفين، « كولادا » و « تيثون »،
ووضعاهما بين يدى الملك سيدهما،
وعندما نُزع السيفان من غمديهما توهج البلاط بريقا،
فقد كان مقبضاهما وقائماهما من الذهب الخالص،
وغمرت موجة من الإعجاب كل الفرسان الذين فى مجلس البلاط.
نادى الملكُ سيدى، وأعطاه السيفين،
فتسلمهما، وقبل يدى الملك،
ثم عاد إلى أريكته، تلك التى فارقها من قبل.

أمسك بها بين يديه، وراح يتأملها صامتاً،
لا يستطيعان تبديلها، فهو يذكر جيداً ما كانا عليه،
غزت كلَّ جسمه بهجةٌ غامرة، وراح يضحك من القلب،
ثم رفع يده ،وأمسك بلحيته :
« بحق هذه اللحية، ولم يستطع أن يمسك بها مخلوق،
إننى سوف أنتقم لكما، **دونيا إلبيرا، ودونيا سول** ».
ونادى بابن أخيه دون **بدرو**، باسمه ناداه،
ومادًّا ذراعه أعطاه السيف « تيثون » :
« خذه ياابن أخى ،معك سيكون فى يد خير سَيِّد »،
وبعده نادى **مرْتين أنتولينييث**، ذلك البرغشى الوفى،
ومرة أخرى مادا ذراعه أعطاه السيف الثانى « كولادا » :
« خذه **مَرْتين أنتولينييث**، ياتابعى المخلص.
خذ « كولادا »، لقد ربحته أنا من فارس نبيل،
من **رامون برنجير** حاكم برشلونة الكبير،
ولهذا أعطيه لك، لتعنى به، وتحافظ عليه أنت،
أعلم أنه إذا حدث شىء، أو جاءت المناسبة،
فستعرف كيف تنتصر به شريفاً وشجاعاً ».
فقبّل **مِرْتين** يدَ السيد، وتلقى منه السيف،
ثم نهض واقفاً **سيدى القنبيطور :**
« شكراً للخالق، ولكم سَيِّدى وملكى !
لقد ردّا إلىَّ سيفَىّ « كولادا » و « تيثون »،
ولكن هناك شكوى أخرى ضد أميرى كاريون :

عندما تركا بلنسية مودّعين مع بنتى الحبيبتين،
أعطيتهما ثلاثة آلاف مارك، من الذهب والفضة خالصين،
هذه العطايا من جانبى، قابلاها بالنقيض،
فليرداً إلى أموالى، فلم يعودا صهرى بعد».
آهٍ لو رأيت تشكىٌ، وسمعت تعلّلات، أميرى كاريون!
وقال الكونت **دون رامون**: «رُدّا: نعم أولا».
حينئذ ردّ أميرا كاريون:
لقد قدمنا السيفين إلى السيد القنيطور،
حتى لا يطلب منا مزيداً، بهما انتهت مطالبه عندنا».
فى الحال ردّ الكونت الطيب **دون رامون**:
«إذا أذن الملك، فردُّنا على الادعاء:
نحن لا نعارض فيما يطالب به السيد القنبيطور».
فرد الملك الطيب: «وأنا أوافق على ماتقول».
هبّ السيد القنبيطور وافقاً:
«قل: هل سترد لى الاموال التى أعطيتها لهما،
أو كل ما هنالك، أنك تعطينى الحق فيها».
انتحى أميرا كاريون، وأنصارهما جانباً،
لم يتفقا على كلمة، كان المال المطلوب منهما باهظاً،
وأنفقاه كله، لم يُبق منه على شىء أميرا كاريون،
ثم عادا إلى المجلس ببسطان وجهة نظرهما:
«لقد سخا علينا فى الإهداء، مَن ربح بلنسية،
لأنه كان يشتعل نهماً إلى ثرواتنا، وينظر إليها فى غيرة،

ولإرواء نهمه، سوف نقطعه جزءاً من أرضينا فى كاريون».

بعد هذا التصريح تدخّل القضاة :

«إذا أرضى ذلك السيد فلن نعارضه نحن،

لكن نحن الذين نصدر الحكم، فتلك مهمتنا،

أن تعطوه هنا، فى مجلس البلاط، الأموال التى أعطاها لكم».

وبعد هذه الكلمات تحدث الملك دون **ألفونسو** :

«نحن نعرف جيداً كل ما يتصل بهذه القضية،

وحقّ ما يطالب به السيد القنبيطور،

من الثلاثة آلاف التى يطالب بها، مائتا مارك عندى أنا،

قدّمها لى أميرا كاريون كلاهما،

وأودّ أن أردّها لهما اليوم، فما يملكان قليل،

لكى يردّاها إلى السيد، مَن فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،

مادام عليهما أن يدفعا ما أخذا، أنا لا أريد هذه الأموال».

اسمعوا ما تحدّث به الكونت **فرنان جنثالث** :

«ما نملكه نحن الاثنان من عملة جيدة قليل».

فرد عليه الكونت دون **رامون** :

«لأنكما أنفقتما ما أخذتما منه، ذهبا أو فضة،

لحضرة الملك نتقدم بطلب جديد :

أن تدفعا له أشياء تساوى ما أخذتما، ويقبلها القنبيطور».

وجد أميرا كاريون أنه لا مفرّ من تنفيذ ما حكم به عليهما.

وشهد الناس خيلا كثيرة دريرة تجىء،

وبغالا فارهة وأفراساً حساناً،

وسيوفاً نادرة مصقولة، أحكم القيْن صنعها،
تذهب أمام مجلس البلاط ويتسلمها السيد،
إلى جانب المائتى مارك، وقدّمها الملك **ألفونسو**،
دفعها كلها أميرا كاريون إلى من ولد فى لحظة سعيدة،
لم يكفهما ما يملكان فاقترضا من البعيد،
وخرجا من المجلس، ليكن فى علمكم، مهزومين محتقرين.

١٣٨

السيد، بعد مطالبته بالحق المدنى، يستعد للتحدّى

تسلّم **السيد** ما دفع له من منقول مقابل أمواله،
أخذ رجاله كل شىء، وأصبح تحت حراستهم الآن،
انتهى من هذه القضية، وبقى شىء واحد يفكرّ فيه :
- «رضاك، ملكى وسيّدى، وحبًّا فى الخالق،
كبرى إهانتها لا أستطيع أن أنساها،
فليسمعنى كل مجلس البلاط، ويشاركنى آلامى،
لقد أهان أميرا كاريون شرفى بقوة،
فلا أقلّ من أن تتاح لى الفرصة، كى أتحدّاهما.

١٣٩

قولا لى : أى أذى ألحقته بكما يا أميرى كاريون ؟
حقيقة، أو ضاحكا، أو فى أى صورة كان ؟
أنا، أمام مجلس البلاط، أطالبكما بالتعويض،

لأى سبب مزّقتما شغاف قلبى ؟
عندما خرجتما من بلنسية، سلمّتكما بنتىّ بيدى،
معهما أعطيتكما أموالا طائلة، وأجريت لكما كل مراسم التشريف،
إذا لم تحبّانهما، أيها الكلبان الخائنان،
لماذا رحلتما بهما من بلنسية، ومعهما الشرف والمال ؟
لماذا أوثقتماهما بالكلاليب، وجلدتماهما بالسياط ؟
فى غابات كوربس تركتما بنتىّ وحيدتين،
تحت رحمة الطيور الجارحة، والحيوانات المفترسة،
العار الذى ارتكبتماه هناك، ذهب بكل ما لكما من قيمة،
فليحكم مجلس البلاط فى القضية، إذا لم يردّا لى اعتبارى ».

١٤٠

جدل بين غرسية أرودونييث والسيد

نهض الكونت **غرسية أرودونييث** واقفاً :
« رضاك، يا سيدى، ملكنا، وأفضل كل من فى إسبانيا !
تعوّد سيدى على مجالس البلاط الحاشدة،
وترك لحيته تغزر وتطول،
وإذ كان بعض الناس يخافون، والآخرون يشعرون إزاءه بالرعب،
فأميرا كاريون ينتميان إلى أعلى طبقة،
وهاتان البنتان لا تصلحان لهما، حتى ولا مجرد عشيقتين،
فمن يستطيع إذن أن يقدّمهما للأميرين زوجتين شرعيتين ؟
لقد استخدما حقهما عندما تركاهما،

وكل ما يقوله السيد، لا يساوى فى الحقيقة شيئاً».

فرد **القنبيطور**، وهو يداعب لحيته :

«شكراً لله خالق الأرض والسماء!

طالب لحيتى لأنها نمت بالهدايا،

ليس هناك ابن امرأة استطاع أن يمسها،

كان أبوه مسلما ، أو كان ابن مسيحى،

على نحو ما عبثتُ بلحيتك، وانتزعت شعيرات منها، فى حصن قبرة،

فى اليوم الذى استوليت فيه على قبرة، أخذتك من لحيتك،

حتى أحقر لص عبث بلحيتك الطويلة،

والجانب الذى اقتلعت شعيراته، مازال واضحاً، لم يَنْم كالبقية بعد،

أما الشعيرات نفسها، فمازلت أحفظها، جئت بها فى حقيبتى هذه».

١٤١

فرناندو يرفض التهمة

فى الحال وقف الأمير **دون فرناندو**،

فاسمع ما تحدث به صارخا، فى صوت مرتفع :

«دعنا من هذا يا سيد، وقل لنا غير هذا الكلام،

لقد دفعنا لك ما طلبتَ من أموال كاملا غير منقوص،

لا توسِّع شقة الخلاف بيننا وبينكم،

فنحن تجرى فى عروقنا دماء أمراء كاريون،

نستطيع أن نتزوج من بنت أىِّ ملك أو إمبراطور،

وليس من بنات وُلدن فى بيت أمير ناشىء صغير،

لقد تركنا بنتيك عدلا، وفى ظل القانون،
ونحن الآن أرفع قدرا، يجب أن تعرفه، ولن ننقص شيئا».

١٤٢

السيد يدفع بدرو برمودث إلى التحدى

وقع نظر سيدى **رُوى دياث** على **بدرو برمودث**:
«**بيرمودو**، ألاَ تتكلم، هلى أنت الفارس الذى يصمت دائما؟
إنها بالنسبة لى بنتاى، بالنسبة لك ابنتا عمك، أختاك،
إذا قيل هذا الكلام لى فبه يشدونك من أذنيك،
إذا رددتُ أنا أوّلا، فلن تكون معنا فى مواجهة السلاح.

١٤٣

بدرو برمودث يتحدى فرناندو

حينئذ حاول **بدرو برمودث** أن يتحدث،
فخانه لسانه، وضاعت على شفتيه الكلمات،
لكنه عندما بدأ، ليكن معلوما، اندفع بلا توقف:
«سيد!... أعترف بأن لك عادة فريدة
فى مجالس البلاط، كم من مرة دعوتنى **بير مودو**!
وأنت تعرف جيدا أننى فى مثل هذا الحالات لا أستطيع شيئاً،
وإذا كان لابد أن أصنع شيئا، فلن أخيّب لكم رجاء،
فيما قال الأمير **فرنّاندو** قليل من الكذب،
فأنت فى نظر القنبيطور تساوى أكثر مما تعتقد،

أذكر شيئاً من حبائلك، وسأحكيها لك،
هل تذكر عندما كنا نقاتل قريبا من بلنسية العظيمة،
وطلبتَ من القنبيطور الوفى أن تكون أول من يقاتل،
فلما رأيت مسلماً، تهيأت لمهاجمته،
ولكنك مسرعا آثرت الفرار، قبل أن تقع عليك عيناه،
ولو لم ألحق بك معينا، لسخر منك المسلم على نحو لاتحمد عقباه،
ثم تركتك خلفى، ولا حقت المسلم عجلا، كان علىّ أن ألقاه،
بعد ضربات قليلة، سقط قتيلا، فارق الحياة،
أعطيتك فرسه، وأصبح ملكك واتفقنا على الكتمان،
وحتى هذه اللحظة ما عرف الخبر أحد، لم يكتشفه إنسان،
وجرؤت على أن تزهو أمام سيدى والآخرين؛
بأنك قتلت ذلك المسلم، فى مغامرة ليس لها مثيل،
صدّقوا كلماتك كلها، لم يفكر أحد أبداً أن الحقيقة غير ما تقول،
لا أنكر أنك جميل؛ ولكنك أكثر من ذلك عربيد جبان،
لسان طويل بلا سواعد، كيف إذن تجرؤ على الكلام؟

١٤٤

بدرو برمودث يواصل تحديه

قل لى **فرناندو**، اعترف بما سأحكيه :
ألا تذكر ما حدث لك فى بلنسية مع ذاك الأسد،
عندما كان سيدى نائماً وانطلق الأسد من مربضه،
وأنت، **فرناندو**، ماذا صنعت بجبنك الذى لا يقهر؟

اختبأت تحت أريكة سيدى القنبيطور!
استلقيت هناك فرناندو، وذلك ما ذهب باحترامك،
أحطنا جميعاً بالأريكة لحماية سيّدنا،
حتى استيقظ سيدى فاتح بلنسية،
فنهض من أريكته، وتقدم نحو الأسد،
فطأطأ الأسد رأسه، وبقى سيدى منتظراً
ثم قاده من رقبته، وردّه إلى قفصه من جديد،
وتطلعَّ حوله، فإذا أتباعه محيطون به،
وعندما سأل عن صهريه لم يقف لهما على أثر،
أنت شخصياً، أتحداك، لأنك خائن وشرير،
أتحداك هنا، أمام الملك دون **ألفونسو**،
فى سبيل بنتى السيد، **دونيا إلبيرا و دونيا سول**،
إنكما بالتخلى عنهما فقدتما ما كان لكما من احترام قبل،
وعندما يبدأ التحدىّ، إذا أراد الخالق،
فسيكون عليك، أنت نفسك، أن تعترف بأنك تصرّفت كخائن،
ما قلته هو الحقيقة، وواجبى أن أكون مع ما هو حق».
وعند هذا القدر توقفت الخصومة بينهما.

١٤٥

ديبجو يرفض اتهامه بالجبن

أصغوا جيدا إلى ما قاله الكونت **ديبجو جنثالث**:
«فى عروقنا يجرى دم نبيل، ونحن من أصفى الأسر نسبا،

لكم تمنيت أن هذا الزواج لم يتحقق أبداً،
حتى لا يلتحم نسبنا مع سيدى **دون لذريق** بأية حال،
تركنا بنتيه، ولسنا على ذلك من النادمين،
وتستطيعان أن ترسلا زفراتها حارة ما امتدت بهما الحياة،
وما وجهناه لهما من إهانة سنلقاهما به على الدوام،
وأقول متحديا أكثر الناس شجاعة،
بعد أن تخلينا عنهما ازددنا شرفا عما كنّا عليه.

١٤٦

مرتين أنتوليني‌ييث يتحدى دييجو جنثالث

هبَّ **مرتين أنتوليني‌ييث** واقفا :
« اسكت أيها الخائن، لسان لم يتعود أن يقول الحقيقة،
حادث الأسد ذاك يجب ألا تنساه،
هربت من الباب، واختبأت فى حظيرة الثيران،
وبعدها لجأت إلى أسوار معصرة النبيذ،
من يومها لم تستطع أن ترتدى صدارا ولا عباءة،
ذلك ما أتحداك به، ولا أتجاوزه إلى ما عداه،
لقد أردنا أن تفارقا بنتى السيد،
على أى حال، هما به أكثر شرفا؛ وهو ما يجب أن تعرفاه.
فى مجال التحدّى، عندما تحين ساعته، ستقوله عن نفسك بلسانك :
كنتُ خائناً، وكذّابا فى كل ما قلتُ ».

١٤٧

أسور جنثالث يدخل مجلس البلاط

انتهى الخصام بين الاثنين على هذا النحو.
حينئذ وصل **أسور جنثالث** ودخل القصر،
يرتدى عباءة من فراء، ويجر رداء من حرير،
متورِّد الوجه، فقد أنهى غذاءه من قليل،
فيما يتحدث، قليل الاهتمام بما يقول :

١٤٨

أسور يشتم السيد

« أيها الفرسان، متى رأيتم شيئاً حدث على نحو ما يجرى الآن ؟
مَن يقل إن جانب النبل فينا يعود إلى سيدى، **ابن بيبار**،
فليذهب إلى نهر « أوبيرنا » يعمل فى طواحينه،
وليقبض ثمن عرقه حفنات من دقيق، وهو ما يدفعونه عادة هناك !
مَن ذلك الذى يجرؤ على أن يخلط بدمه دماء أمراء كاريون ؟.

١٤٩

مونيو جوستيوث يتحدى أسور جنثالث - رسل من نبرة وأرجون يطلبون يدى بنتى السيد لابنى ملكيها - دون ألفونسو يبارك الزواج الجديد - مينايا يتحدى أمراء كاريون - غومث بلاث يقبل التحدى، ولكن الملك لا يحدد موعداً إلا لأولئكم الذين رغبوا

فيه من قبل - الملك يحمى تحديات السيد الثلاثة - السيد يقدم الهدايا للجميع مودعا - الملك يخرج من طليطلة مع السيد، ويأمره أن يسابقه بجواده

حينئذ هب **مونيو جوستيوث** واقفاً :

« اسكت أيها الغدّار، فأنت شرير وخائن،
أنت تتغدى أولا، ثم تذهب بعد ذلك للصلاة،
والذين تبادلهم قبلة السلام فى الكنيسة سوف ترعجهم رائحتك الكريهة،
أبدا لم تقل الحقيقة فى حياتك ، لا للسيد ولا للصديق،
وأنت خدّاع للجميع، ومع الخالق أكثر خداعاً،
لا أريد صداقتك، ولا علاقة من أىّ لون،
وسأرغمك على أن تعترف أنك كما قلتُ ».

وقال الملك **ألفونسو :** « اسكت، دع النقاش.
الذين ألفوا التحدى وقبلوه يتبارزون، فليساعدنا الله ! ».
وما أن انتهوا من الحديث، وقد عرض كلٌ وجهة نظره،
حتى اقتحم فارسان مجلس البلاط فى نفس اللحظة :
أولهما يسمى **أوخرّا.** والآخر يُدعى **إنييجو خمينيث.**
أحدهما رسول أمير نبرة،
والثانى بعث به أمير أرجون،
قبلا يدى الملك دون **ألفونسو،**
وطلبا بنتىْ سيدى **القنبيطور،**
لتصبحان ملكتين فى نبرّة وأرجون،
كزوجين شرعيتين، بشرف وعقد،

صمت الجميع، وسمع ما يطلبان كل مجلس البلاط.

نهض واقفا سيدى القنبيطور :

« رضاك أيها الملك ألفونسو، فأنت سيّدى !

ذلك ما أشكر الخالق عليه،

أن يطلب بنتّى ملكا نبرّة وأرجون.

من قبل أنت الذى زوجتَ بنتّى، ولست أنا،

لقد وضعتها فى حمايتك، بين يديك،

ودون أمر منك لا أقدم على عمل شيء ».

صمت المجلس عندما انتصب الملك واقفا :

« أرجوكم يا سيد، أيها القنبيطور الشجاع.

اقبل هذا الطلب، وسأعطيكم موافقتى الآن،

ذلك الزواج أوافق عليه، وأنا هنا فى مجلس البلاط،

وستريح من ورائه أرضاً وشرفاً ونبلا ».

فوقف **السيد**، ثم تقدم نحو الملك، وقبل يديه :

« كل ما يرضيكم سيّدى، يسعدنى أنا وأوافق عليه ».

وأضاف الملك : « لقد عوضك الله خيرا كثيراً،

وأنتما **أوخرا وإنييجو خمينيث** أقول لكما :

إننى وافقت على الزواج الآن، وسأكون أنا،

مَن يقدم يدى بنتى السيد. **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**،

زوجتين للطيبين أميرى نبرّة وأرجون :

زوجتين شرعيتين، بشرف وعقد ».

نهض واقفاً **أوخرا**، ونهض معه **إنييجو خمينيث**،

تقدما نحو الملك دون **ألفونسو**، وقبلا منه اليدين،
ثم صنعا نفس الشيء مع سيدى **القنبيطور**،
تمت الخطوبة، وأقسم الجميعُ اليمين،
أن يتمّ كل شيء على ما اتفقا عليه، أو أفضل،
وسرَّ ما حدث كلُّ من فى مجلس البلاط،
غير اثنين لم يسرهما الأمر، وهما أميرا كاريون،
ثم وقف **مينايا ألبار هانييث**:
« أود أن أطلب موافقتكم سيدى وملكى،
وألاّ يؤلم ما أقول السيد القنبيطور،
كثيرون استطاعوا فى هذا المجلس أن يتحدثوا كما يحبون،
وأودّ أن أكون مثلهم، عارضا وجهة نظرى ».
فرد الملك: « ذلك شيء يسعدنى من القلب،
قل إذن يا **مينايا** كل ما تريد، على نحو ما تحب ».
« إنى أرجوكم، وأرجو كل مجلس البلاط أن يسمعنى،
فلدىّ شكوى أليمة من أميرى كاريون،
باسم الملك **ألفونسو**، قدمتُ لهما بنتىّ عمى،
فتلقياهما زوجتين شرعيتين وشريفتين،
وأهداهما سيدى القنبيطور أموالا هائلة،
وما لبثا أن تركا زوجتيهما، عابثين بشرفنا،
إنى لأتحدَّى الأميرين، شرّيرين وخائنين،
جرى فى عروقكما دماء أسرة **بنى غومث**،
منها انحدرتما، أميرين محترمين وشجاعين.

ولكنكما تعرفان اليوم، ما تصنعان من أحابيل،
إن أتوجه إلى الخالق بشكرى العظيم،
لقد طلب يدّ بنتى عمى، **دونيا إلبيرا و دونيا سول**،
زوجتين شريفتين، أميرا نبّرة وأرجون،
كانتا بالأمس زوجتيكما الشرعيتين على مستواكما،
والآن عليكما أن تناديهما : سَيِّدتى، وأن تقبّلا منهما اليدين،
وكل واحد منكما يصبح لهما خادما، مهما ساءه أو كان من الغاضبين،
منكرا لإله السماء، وللملك دون **ألفونسو**،
لقد ازداد سيدى القنبيطور شرفا وقدرا.
ومهما يكن، فأنتما هكذا، وعلى نحو ما أقول،
ومن يجرؤ على أن يناقش، أو يقول لا،
فليعلم أننى **ألبار هانييث**، خير الرجال، وأشجع الفرسان.
حينئذ نهض **غومث بلايث** واقفا :
« ما قيمة ما قلت يا **مينايا** من حديث طويل ؟
كثيرون هنا، فى هذا المجلس، يستطيعون أن يطاولوك،
ومن يقل شيئاً آخر، فإنما يحفر قبره بيديه،
وإذا أراد الله، فسوف نخرج من هنا سالمين،
ويبقى عليك أن ترد فيما بعد على ما قلت وبه تفوهت ».
فتدخل الملك : « لقد انتهت المناقشة،
ولن يسمح لأى طرف بأن يعود فيتحدث فيه،
ولتكن المبارزة غداً عندما تشرق الشمس،
ثلاثة ضد ثلاثة، وهم الذين تحدّوا فى مجلس البلاط ».

أراد أميرا كاريون الكلام،
« اضرب لنا موعداً آخر أيها الملك، فغدا من المستحيل،
سلاحنا، وخيلنا، أعطيناها كلها للسيد القنبيطور،
قبله علينا أن نذهب إلى أراضى كاريون ».
فالتفت الملك إلى القنبيطور :
« ستكون المبارزة على نحو ما تريد أنت ».
حينئذ ردّ سيدى : « لن يكون ذلك سَيدى،
أفضل أن أذهب إلى بلنسية، على أن أذهب إلى كاريون ».
فرد الملك : « ليكن ذلك يا قنبيطور،
أعطنى فرسانك مع كل أسلحتهم،
يذهبون معى، فى رفقتى، وسيكونون فى حمايتى،
أفعل ذلك، مع تابع طيب، ذلك واجب السيّد،
لن يتعرضوا لأى أذى، من كونت أو أمير،
وسأقترح أنا الموعد فى مجلس البلاط.
فى نهاية الأسبوع الثالث، يكون لقاؤنا فى سهول كاريون،
وستتم المبارزة بإشرافى، فى محضرى،
ومَن لا يفى بالموعد يخسر كل حق،
يُمكن اعتباره مهزوماً، وينسحب كخائن ».
وقد علم بهذا الأجل أميرا كاريون،
قبّل السيد يدى الملك :
« بين يديكم أترك فرسانى الثلاثة فى أمان،
وبهم أوصيكم، كملك لى وسَيد،

كلهم مستعدون ليؤدوا واجبهم بشرف،
أبعث بهم إلى بلنسية شرفاء بحق الخالق!».
فرد عليه الملك: «إن شاء الله».
هناك نزع كوفيته السيد القنبيطور،
كوفية من نسيج رقيق، بيضاء فى لون الشمس،
وأظهر لحيته، نزع عنها ما كان يسترها من غطاء،
لم يتعب واحد فى المجلس من النظر إليه وتأمّله،
ثم تقدم إلى الكونت **دون إنريك**، والكونت **دون ريمون**،
عانقهما بحرارة، وطلب إليهما من القلب،
أن يأخذا من ثرواته وأملاكه كل ما يحبان.
ثم توجه إلى حاشيتهم، فرسانهم والذين حولهم من الاتباع،
يرجوهم أن يتخيروا من أمواله كل ما يحلو لهم،
قبل الهدية بعضهم، وشكره عليها آخرون،
وأبرأ ذمة الملك من المائتى مارك التى عنده،
وعرض عليه أن يتخير مما لديه ما يقع من ذوقه موقع الرضا والقبول:
«أطلب عفوكم، ياملكى، بحق الخالق!
لقد حللْت كل المشاكل، ووصلت بكل أمر إلى غايته.
أقبل يديكم؛ وأطمع فى رضاكم يا سَيّدى؛
لأنى أود العودة إلى بلنسية؛ ولربحها بذلتُ الغالى من التضحيات».

حينئذ أمر السيد بإعطاء رسل أميرىْ نبرّة وأرجون ما اختاروا من الحيوانات؛ وكل ما يحتاجون إليه، ثم ودّعهم.

وامتطى الملك دون **ألفونسو** جواده؛ ومعه كبار فرسان بلاطه لتوديع

السيد الذى سيغادر المدينة، وعندما وصلوا إلى ميدان «السوق المدور»، كان السيد ممتطياً صهوة فرسه، وينادونه «بيبيكا»، فقال له الملك: «دون **لذريق**، لكم أحببت لو رأيتك تطلق العنان لفرسك هذا منطلقاً، فكثيراً ما حدثوني عنه». فابتسم السيد قائلا: «سيّدى، هنا فى بلاطك كثيرون من **الرجال المشهورين، والقادرين على هذا، مُرهم إذن أن يحاولوا هذا بخيلهم**» فردّ عليه الملك: ياسِيد، حقًا ما تقول، ولكنى، مع ذلك، أود أن أرضى حاجة فى نفسى، من أجل، هيّا انطلق به».

١٥٠

الملك يعجب «بيبيكا»، ولكنه لا يقبله هدية - وصايا السيد الأخيرة إلى المبارزين الثلاثة من فرسانه. عودة السيد إلى بلنسية - الملك فى كاريون. حلول موعد المبارزة، أميرا كاريون يحاولان استبعاد السيفين «كولادا» و«تيشون» من المبارزة - فرسان السيد يطلبون الحماية من الملك ويخرجون إلى ساحة المبارزة - الملك يعين حكام الحلقة ويؤنب أميرى كاريون - الحكام ينظمون المبارزة - اللقاء الأول - بدرو برمودث يهزم فرناندو.

اطلق **السيد** العنان لفرسه، فاندفع كالريح، وكان فى سرعته موضع اعجاب لجميع،

فرفع الملك يده، وصلبَّ على وجهه:

«أحلف بالقديس إسيدورو، الموقر فى ليون،

أنه لا يوجد فى كل أراضينا، فارس أعظم منه».

عاد **السيد**، وحينئذ تقدّم بفرسه،

وذهب ليقبل يد سيده دون **ألفونسو**،
«لقد أمرتنى أن أنطلق ببيكا، الفرس الدرير،
لا يوجد له شبيه فى السرعة، لا عند المسلمين ولا المسيحيين،
إنه هدية منى، وأرجوك أن تتقبلها سيِّدى».
حينئذ قال الملك: «ذلك فضل أعفنى منه.
إذا تركت لى الفرس، فلن أجد له السيِّد الفارس،
فرس عظيم كهذا جدير بك أنت،
لكى تنتصر على المسلمين فى المعركة، وتمضى فى لحاقهم،
وإذا انتزعه منك أحد، فلن يرضى الخالق عنه،
نحن بك وبفرسك، نزداد مع الأيام شرفا».
ثم توادعا، وانتهى اجتماع مجلس البلاط.
زود القنبيطور الذاهبين إلى المنازلة بنصائحه:
«يا **مرتين أنتولينييث**، وأنت يا **بدرو برمودث**،
ومعكما **مونيو جوستيوث**، تابعى الوفّى،
اثبتوا ساعة اللقاء، وبارزوا كرجال،
سأبق فى بلنسية متلهفاً لأخباركم الطيبة.
قال **مَرتين أنتولينييث**: «لِمَ تقول هذا سيّدى،
لقد عرفنا مهمتنا، وعلى استعداد لنؤدى واجبنا، كأفضل ما يكون،
ربما يقال لك إننا قُتلنا، أما هُزمنا فلا..».
سُرَّ بما سمع، مَن فى لحظة سعد طرق باب الحياة،
ودع الجميع، وكلهم له أصدقاء،
سلك السيد طريقه نحو بلنسية، واتجه إلى كاربون،

انتهت الأسابيع الثلاثة. وحلَّ موعد الأجل،
حافظَ عليه فرسان السيد القنبيطور،
أرادوا أن يوفوا بما عاهدوا عليه سيدهم،
كانوا فى حماية دون **ألفونسو** ملك ليون،
ومر يومان قبل أن يجئ أميرا كاريون،
وصلا؛ كلٌّ على فرس رائع التسريج، ومعهما سلاح جديد،
تحدَّثا برهة مع أقاربهما، وتلقيّا منهم النصح،
بأن يبتعدا ما استطاعا عن فرسان القنبيطور،
وأن يقتلوهم فى الساحة مهدرين شرف سيّدهم،
كان الهدف شريراً، ولكن أحدا منهم لم يحققّه أبدا،
فكلهم يرتعبون خوفا من **ألفونسو** ملك ليون،
امتشق فرسان السيد أسلحتهم، وصلوّا للخالق.
تصرم الليل، وانشقت السماء عن فجر جديد،
تواقد على الساحة عظماء الرجال، والأغنياء، وكبار الفرسان،
أن تجرى مبارزة بهذا المستوى، حدث فذ وجذّاب،
وتميز بين الجميع الملك دون **ألفونسو**،
لكى يقيم القانون، ويحول دون المظالم،
لبس فرسان القنبيطور الطيب عدة الحرب،
تعاون ثلاثتهم بإخلاص، فقد كانوا يخدمون سيِّدا واحدا
وفى جانب آخر، أخذ أميرا كاريون أسلحتهما،
ومعهما الكونت **غرسية أوردونييث** يواليهما النصح،
وفجأة أثارا مشكلة، وتقدما بشأنها إلى الملك **ألفونسو**،

أن يستثنى من السلاح فى المبارزة السيفان «كولادا» و«تيثون»،
فلا يقاتل بهما فرسان **السيد القنبيطور**،
ولكنهما عادا مما يطلبان غاضبين،
فقد استمع الملك لقولهما، ولكنه لم يوافقهما عليه :
«إن قرار مجلس البلاط لم يستثن من السلاح أىَ سيف،
تستطيعان أن تستخدما سيفيكما، إذا كان رائعين،
ولهم الحق أن يستخدموا سيف القنبيطور،
اخرجا إلى الساحة، تقدما.. هيا أميرى كاريون!
لقد قبلتما النزال كما يخطط له فارس رجل،
افعلا كما يصنع الآخرون، فرسان السِّيد،
إذا انتصرتما فى ساحة المبارزة، حزتما الشرف عاليا،
وإذا خرجتما مهزومين، فليست هذه خطيئتنا،
فالكل يعرف أنكما كنتما عنها باحثين!».
بدا الحزن واضحا على وجه أميرىْ كاريون،
أحسَّا بالذعر، وهما يفكران فيما هما عليه قادمان،
وإذا أحجما عنه يصبحان حديث كل من فى كاريون،
أتباع السيد القنبيطور بكل عدتهم، فى كامل سلاحهم،
تقدم منهم الملك دون **ألفونسو** لكى يراهم،
فى صوت واحد قال له الثلاثة :
«إننا نقبل يديك، كملك لنا وسيد،
ونطلب منك أن تكون حكما فى مبارزة اليوم،
يهمنا أن يعلو القانون، وألا يكون هناك ظلم،

هنا جاء مع أميرى كاريون من عصبتهم خلق كثير،
لا نعرف ما الذى يمكن أن يقدما عليه وما الذى يعفان عنه،
بين يديكم، تحت حمايتكم، ألق بنا سيدنا،
فارفع راية العدل بحق الخالق».
أحضروا لهم الخيل، قوية وسريعة،
وبعد أن صلّبوا علوها فى وثبة واحدة،
من رقابهم تتدلّى شعاراتهم، مذهبة ذات بريق،
فى أيديهم الحراب قاطعة، صنعت من حديد متين.
وكل واحد من الحراب الثلاثة تخفق أعلاه راية،
حول الساحة تجمعّ فرسان كثيرون مشهورون،
خرجوا إليها وقد أحاطت بها الرايات من كل جانب.
فرسان القنبيطور الثلاثة اتفقوا فيما بينهم،
اختار كل واحد منهم العدو الذى يواجهه،
وفى الجانب الآخر كان أميرا كاريون :
مع رفقة طيبة وقفوا، أقاربهما كثيرون،
فاختار الملك قضاة يحكمون : أهو من حقهم أم لا...
لتجنب الخلاف حول ما يحدث هناك.
وعندما نزل المتبارزون الساحة، تكلم الملك دون **ألفونسو :**
«اسمعا ما أقول لكما أميرىْ كاريون،
لقد رفضتما أن تجرى المبارزة بشرف فى طليطلة،
هؤلاء الفرسان الثلاثة أتباع سيدى القنبيطور،
جئت بهم تحت حمايتى إلى أراضى كاريون،

حقكما لا معارض له، أما الخيانة فلا...
وإذا حاول أحدكما خداعاً، فسأقف ضده، أنفذ فيه القانون،
فى أرض مملكتى لن يصيبه غير الامتهان والتحقير».
يا له من كابوس ثقيل ذلك الذى أحس به أميرا كاريون!
الملك ألفونسو والقضاة خططا على الأرض كل الحدود،
ثم تركوا الساحة، وأخذوا أمكنتهم على جانب،
وأعلم الستة المبارزين بما يجب عليهم أن يتبعوه،
يُعتبر مهزوماً من يتجاوز الحد المقرر له،
كل الناس تركوا ساحة المبارزة، ووقفوا حولها،
بعيداً من الحدود بما يساوى مسافة ستة رماح،
فى الحلقة واجهوا حظوظهم، يتقاسمون الشمس،
واحتل القضاة مكاناً وسطاً، فى مواجهة المتبارزين،
من هنا جاء أتباع السِّيد، ويمموا شطر أمراء كاريون،
هكذا واجه أمراء كاريون فرسان القنبيطور،
كل واحد يرقب خصمه يقظا فى حذر،
بينما شعاره بيده فوق قلبه،
أنزلوا رماحهم، وبقيت راياتهم تخفق فى الهواء،
واتكأ كل مقاتل على حافة سرجه،
وهمز كل واحد جواده فاندفع واثبا،
وحيثما تحركوا فإن الأرض تضطرب من تحتهم،
ونظر كل إلى خصمه على النحو الذى يوافق هواه،
تجمّع أتباع السِّيد الثلاثة، وهكذا فعل أمراء كاريون،

obeikandl.com

والنظّارة حولهم، فى كل لحظة، يتوقعون سقوطهم قتلى.
كان **بدرو برمودث** أول من برز وتحدى
فرنان جنثالث، وجها لوجه التقى معه،
تبادلا الطعن بشعاريهما، دون أدنى خوف،
فرنان جنثالث رمى **بدرو** بشعاره،
لكن الضربة ضاعت فى الهواء، فلم تبلغ منه اللحم،
وبها تحطم رمحه، وانكسر نصفين،
بقى **بدرو برمودث** صلبا، لم يكن فى حاجة بعد إلى حراك،
إذا تلقى طعنة رد عليها باثنتين،
حطم له قاعدة شعاره، فتناثرت على الأرض،
ظل ينقله من جانب إلى جانب، دون أن يمنعه سبب،
ثم ثبت رمحه فى صدره، قريبا من القلب،
كان درع **فرناندو** مثلثا، وهذا ما أنقذه،
مزقت الطعنة اثنين منهما، وقاوم الثالث،
غير أن العباءة والقميص، وما تحتهما من ملابس،
من شدة الطعنة غاصت كلها فى اللحم،
ومن فمه تدفق الدم حارّاً غزيراً،
وتمزقت أحزمة فرسه، لم يبق منها واحد سليما،
ثم تهاوى الفرس، فوقع على ذيله، واستقر فى الأرض،
وظن كلّ الناس أن طعنة الموت أصابت الكونت،
ترك الرمح معلقا فيه، ثم انقض عليه بالسيف،
فلم يكد **فرنان جنثالث** يرى «تيثون» حتى تعرّف عليه،

ودون انتظار لطعنة منه صاح عاليا : « أنا مهزوم ».
فأمضى القضاة ما قال، وتخلى **بير برمودث** عنه.

١٥١

مرتين أنتولينييث يهزم دييجو

دون **مرتين** و **دييجو جنثالث** تواجها بالرماح،
كانت طعناتها قوية، حتى تكسرت النصال على النصال،
فاستلّ **مرتين أنتولينييث** سيفه،
فغطى بريقه كل الحلقة، كان صافيا نظيفا ساطعا،
وفى هجمة واحدة طعن أمير كاريون طعنة نافذة،
فأطاح بخوذته من فوق رأسه فى قوة،
قطع رباطها فى ضربة واحدة،
فكشف غطاء الرأس، وبلغ حتى الكوفية،
وألقى بهما كليهما أرضا، الكوفية والغطاء،
جزَّ شعر رأسه، وبلغ منه عمق اللحم،
أشياء كثيرة تناثرت فى الحلقة، وبقى له بعضها،
عندما طعنه بحد « كولادا » البتار،
أحس الكونت **دييجو جنثالث** أنه لن ينجو بحياته !
فشد شكيمة الفرس ليعود من أمام،
شاهرا سيفه فى يده، ولكنه لم يجرؤ على الطعان،
فتلقاه **مرتين أنتولينييث** بسيفه،
ثم أطبق عليه بطعنة جاءت عالية فلم يبلغه،

حينئذ صاح الكونت **دييجو** عاليا، بصوت مرتفع :
« أنقذنى ياإلهى المجيد، ياسيِّدى.. احمنى من هذا السيف !»
أطلق العنان لفرسه، ناجيا بنفسه من « كولادا »،
تجاوز الخط المحدد له، وبقى **مرتين** وحده فى الحلبة،
فناداه الملك : « تعال عندى، إلىَّ بلا تأخير،
نضالك فى الحلبة، يجعل منك المنتصر الوحيد ».
ووافق القضاة على أن الملك قال الحقيقة.

١٥٢

مونيو جستيوث يهزم أسور جنثالث - والد الأميرين يعلن انتهاء النزال - أتباع السيد يعودون حذرين إلى بلنسية - فرحة السيد - الزواج الثانى لبنتى السيد - الشاعر يختم ملحمته

انتصر الاثنان، والآن أحدثكم عن **مونيو جستيوث**،
كيف واجه **أسور جنثالث** فى هذا اللقاء،
ضربات قوية تتساقط على شعاريهما،
أسور جنثالث رجل قوى وشجاع،
وجّه طعنته إلى الشعار الذى يحتضنه دون **مونيو جوستيوث**،
صده الدرع الذى يرتديه وراء الشعار،
فراح يطعن برمحه فى الهواء، دون أن يبلغ من جسمه شيئاً،
وجاء الدور على **مونيو جوستيوث** ليوجه طعنته.
اختار لها الوسط مكانا، فتمزق معها الشعار،
لم يستطع **أسور** أن يتجنبها وقد تراجع الدرع أمامها،

أصابه فى اللحم الحى، ولكن بعيداً عن القلب،
ووالى طعنه بالرمح وبرأس رايته،
وأنفذ فيه رمحا، جرحه من الجانب الآخر،
ثم وجه إليه طعنه قاصمة، هزّته فوق سرجه،
وعندما حاول أن ينتزع منه الرمح كان مستلقيا على الأرض،
وأصبح الرمح، والسيف، والراية، حمراء تسبح فى الدم.
واعتقد الناس جميعاً أنها طعنة الموت،
ثبّت **مونيو** رمحه، واتجه إليه جثة على الأرض،
فصاح **جنثالو أنسورث**: «لاتمسّه بحق الله!
إنه مهزوم فى الحلبة، لقد انتهى كل شىء!».
فردّ القضاة: «لقد سمعنا جميعا ماتقول».
أمر الملك **ألفونسو** بإخلاء الحلبة،
أخذ لنفسه الأسلحة التى تُركت عليها،
رحل اتباع القنبيطور وهم فى ذروة الشرف،
لقد انتصروا فى المبارزة، شكرا للخالق!
وعم الحزن والأسى كل أراضى كاريون،
وأمر الملك بأن يرحل اتباع السِّيد ليلا،
حماية لهم من الأنتقام، وزيادة فى الأمن،
كانوا عقلاء، فواصلوا السير نهارا بليل،
وهاهم أخيرا فى بلنسية مع **السِّيد القنبيطور**،
لقد خلفوا وراءهم أمراء كاريون يتجرعون كأس الذل،
أدوا الواجب الذى كلفهم به سَيدهم،

يالفرحة السّيد القنبيطور بهم !

بينما أصبح أمراء كاريون محط الاحتقار الشديد.

من بين زوجه، ثم يتخلى عنها،

بنته به الأمر إلى الإهانة أو ماهو شر منها،

ولكن، فلندع حكايات أميرىْ كاريون،

وقد أصبحا موضع المثل فيما نالا من عقاب،

من الخير أن نتحدث الآن عمن وُلد فى لحظة سعيدة،

عمت المهرجانات الكبيرة كل بلنسية العظيمة،

فقد عاد أتباع سيدى منتصرين وبشرف،

وداعب **رُوى دياث** لحيته وهو سيدها :

« شكراً لملك السماء. لقد ثأرتُ لشرف ابنتىّ.

لم تعد مصدر هَم لنا أراضى كاريون

ومهما يكن من شيء، أستطيع أن أزوجهن الآن دون خجل،

أدى مهمتهم رسل أميرىْ نبرة وأرجون،

ثم اجتمعوا مع دون **ألفونسو** ملك ليون،

وأقيمت احتفالات عظيمة لزواج دونيا إلبيرا ودنيا سول،

وإذا كان الزواج الأول عظيماً فالثانى أعظم منه،

وشرفت به الأسرة أكثر مما شرفت بسابقه،

انظر، كيف يزداد مع الأيام شرفاً مَن ولد فى لحظة سعيدة :

أصبحت بناته سيدتى نَبرة وأرجون،

ومن نسلهما ينحدر ملوك اسبانيا اليوم،

وكلهم ازدادوا شرفاً بمن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،

لقد ترك سيدى، سيّد بلنسية، هذا العالم،
أيام عيد الفصح، غفر له المسيح !
وغفر لنا جميعاً مخطئين وصالحين،
تلك هى قصة سيدى القنبيطور،
وعند هذا الحد، نكون قد أتينا عليها، بلغنا نهايتها.

لقد انتهت القصيدة،
فهبونى شيئاً من النبيذ،
فإذا لم يكن عندكم فبعض الدنانير،
أو شيئاً من الملابس تتركونه هناك،
وما أجمل أن تعطونى الملابس مع المال والنبيذ.

obeikandl.com

المعجم الجغرافى

حاولنا فى السطور القليلة الآتية أن نعطى تحديداً موجزاً لبعض الأسماء الجغرافية التى مرّت عبر الملحمة، وجلّها أسماء لقرى صغيرة، بعضها تلاشى فلم يعد له وجود، وبقى البعض الآخر، بينما ازدهر القليل منها وأصبح مدناً كبيرة، ولقد عرّفنا بما يجهله القارئ العربى، دون أن نعرض للمدن الأندلسية ذات الشهرة المستفيضة، مثل طليطلة وقرطبة وغرناطة وبلنسية وإشبيلية، وغيرها، ويعرفها كل من له إلمام ولو قليلا بالتاريخ، وجرينا فى ترتيبها على النحو الأبجدى تسهيلا للإفادة منها :

● أتيكا Ateca ، قرية على نهر شلون، على بعد ١١ كيلو متراً من الحامة.

● أربو خويلو Arbujuelo ، واد على نهر شلون.

● أريثا Ariza ، قرية على نهر شلون فى مقاطعة سرقسطة.

● اسبيناث دى كان Espinaz de Can ، مكان مجهول اليوم، ويظن أنه كان يقع فى مقاطعة برغش، جنوب مدينة سيلوس Silos.

● أنكيتا Anquita، هى اليوم مدينة Anguita ، وتقع على نهر تاخونيا، لمرق سيجوينثا.

● ألوقات Alucat ، هى اليوم ألكاوت دل رى Olocaut del Rey ، وعندها تنتهى الحدود الغربية، لمقاطعة قسطليون. وتقع على بعد ٥٠ ك.م من مدينة ثت ريال.

● أونده Onda ، قرية جنوب قسطليون مجاورة لمقاطعة بلنسية.

● بريانا Burriana ، قرية جنوب قسطليون، مجاورة لمقاطعة بلنسية،

● بنى كادىّ Benicadell ، وتكتب أحياناً Pena Cadiel أو Pennacatel ، وتقع على الحدود التى تفصل بين مقاطعتى بلنسية وألقنت.

● بويو El Poyo، قرية تقع على الضفة اليسرى لنهر شيلوكا Jiloca فى الطريق إلى قلعة أيوب، ويحكمها جبل مرتفع، وتبعد ١٠ ك.م من قرية منت ريال، وتقع فى مقاطعة سرقسطة، وكان يطلق عليها قديماً بويو سيدى، نسبة إلى السيد.

● بوبيركا Bubierca قرية على نهر شلون، على بعد خمسة كيلو مترات من الحامة.

● تارانث Taranz ، هو السهل الذى يفرق بين نهرى تاخونيا وشلون، فى الحدود بين مقاطعتى وادى الحجارة وسورية.

● تيرير Terer قرية على نهر شلون، على بعد ٧ كيلومترات من أتيكا.

● تبير Tever ، واد بين نهرى مونروى وتستبينا، فى الحدود الفاصلة بين مقاطعتى طركونة وقسطليون.

● التيرويل Teruel : إحدى مدن إسبانيا الحديثة الكبيرة، فى الجانب الشرقى منها.

● ثتينا Cetina ، قرية على نهر شلون فى مقاطعة سرقسطة.

● ثيلا Cella ، قديماً Celha أو Celfa ، قرية على بعد ثلاثة أميال من التيرويل، وتضم عددا من بقايا الآثار الرومانية.

● جبالة Gebolla ، وتسمى اليوم بويج Puig وهى على ١٨ ك.م شمالى بلنسية.

● الجبيلة Alcobiela ، وفى الإسبانية الحديثة Alcubilla ، مدينة تقع شرق مدينة سان استبان دى غرماج، وكانت تنتهى عندها حدود مملكة قشتالة خلال أيام السيد.

● الحامة Alhama ، قرية على نهر شلون على بعد ٦ كيلو مترات من ثتينا.

● دروقة Daroca ، قرية فى مقاطعة سرقسطة.

● ساهاجون Sahagon ، فى الوثائق القديمة San Fagunt ، تقع على بعد ٣٥ ك. م غربى كاريون وأشهر معالمها دير كان قائما أيام السيد، ومازال حتى اليوم.

● سيرا دى ميدس Sierra de Miedes ، سلسلة من الجبال تفصل نهر تاجو عن نهر دويره.

● الشارقة Jerica ، قرية جنوب قسطليون، مجاورة لمقاطعة بلنسية.

● شقورب Segoreb ، مدينة فى مقاطعة قسطليون.

● شنتمرية Santa Maria ، تسمى اليوم البراثين، تحوير إسبانى للاسم العربى بنى رزين، وهى فى مقاطعة التيرويل، ويسميها المؤرخون العرب شنتمرية الشرق، تمييزاً لها عن مدن أخرى تحمل هذا الاسم؛ أو مضافة إلى بنى رزين أنفسهم، وحكموا فيها زمناً طويلا.

● فرونشالس Fronchales ، قرية فى مقاطعة تيرويل وتقع على بعد ٢٥ ك.م من شنتمرية الشرق.

● فيجرويلا Figueruela مكان مجهول.

● قسطلون Castejon ، وتسمى اليوم قسطلون دى هنارس، وتقع على بعد ٤٠ ك.م من سلسلة جبال ميدس، على الضفة اليسرى لنهر هنارس.

● القصير Alcocer ، مكان مجهول اليوم، ويجب أن يكون موقعه على نهر شلون. بين أتيكا وقلعة أيوب.

● القلعة Alcala ، قرية صغيرة على نهر هنارس.

● قلعة أيوب Calatauth ، فى الإسبانية الحديثة Caltayud ، مدينة قائمة حتى اليوم، على بعد ستة كيلو مترات من ترتر.

● قليرة Cullera عند مصب نهر شُكر، يحيط بها البحر، على بعد ٣٠ ك.م من شاطبة، و٥٥ ك. من دانية.

● كوارتو El Cuarto ، مكان على الطريق الذى يربط بلنسية بقشتالة.

● لوثون Loozn ، قرية فى مقاطعة وادى الحجارة، بين مدينة سالم ومولينا.

● مربيطر Murviedro ، مدينة على بعد ٢٩ ك.م شمالى بلنسية، فى الطريق إلى قسطليون، واشتهرت فى القديم بمسرحها الرومانى، ومايزال باقياً، وهى من مراكز صناعة الحديد فى إسبانيا اليوم.

● المنارة Almanara ، قرية جنوب قسطليون مجاورة لمقاطعةبلنسية.

obeikandl.com

● منت ريال Monrealأو Monnt Real ، قرية على نهر شيلوكا.

● مولينا Molina ، قرية فى مقاطعة سرقسطة.

● نافاس دى بالوس Neves de palos ، فى الإسبانية الحديثة Navapalos ، قرية تقع على بعد ثمانية كيلومترات من الجبيلة، على الضفة الأخرى من نهر دويره.

● هوث Foz ، أو Hoz ربما كانت أرضاً عند منحنى شلون، وهى الآن مكان مهجور

● هيتا Hita قرية تقع على نهر هنارس.

● وادى الحجارة Guadaljara ، قرية تقع على نهر هنارس، وهى الآن مدينة كبيرة تقع قريباً من مدريد العاصمة.

obeikandl.com

المصادر والمراجع

١ - فى اللغة العربية

ابن الأبار : الحلة السيراء، القاهرة ١٩٦٣.

ابن أبى زرع : الأنيس المطرب، أبسالة ١٨٤٣

ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، طبعة إحسان عباس.

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد ١٩٢٦.

ابن عبد ربه : العقد الفريد، القاهرة، طبعة سعيد العريان.

ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب، طبعة ليدن.

ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس، فقرة منه، نشرها المعهد المصرى فى مدريد، ١٩٧١.

المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة.

المقرى : نفح الطيب، طبعة إحسان عباس.

بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز.

محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس، من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة.

٢ - فى اللغات الأجنبية

● فى اللغة الإسبانية :

Amador de los Rios, J.:
Historia critica de la Literatura espanola.

Americo castro:
Hacia Cervantes.
De la edad conflictiva.
La Realided historica de Espana.

Asin palacios, M.:
La escatologia musulmana en la Divina Comedia

Gonzalez Palencia, A.,:
Historia de la Espana musulmana.
Literatura Arabigo – Espanola.

Maranon, G.:
Tiempo viejo y tiempo nuevo.
Vida e historia.
Raiz y decoro de Espana.

Menéndiz y Pelayo, M.:
Origenes de la Novela.
Heterodoxos espanoles,

Menéndez Pidal, Ramon:
Estudios Literarios
Poesia arabe y Poesia europea.
Idea Imperial de Carlos V.
El idioms espanol en sus primero tiempos.
Poesia Juglaresca y Juglares.
El Cid Campeader.

Millas y Vallicrosa:
Influencia da la poesia popular hispano – musulmana en la poesia italiana.

Prieto y Vives, A.:
Los Reyes de Taifas.

Ribera y Tarrago, J.:
Disertaciones y opusculos.

Schack, A. F.:
Poesia y arte de los arabes en Espana y Sicilia.

● فى اللغة الفرنسية :

Dozy, R.:
Histoir des Musulmans d. Espgne.
Recherches sur l'histeire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age.

Huart, C.:
Litérature arabe.

Levi – Provencal, E.:
L'Espagne musulmane au Xe siécle. Institutions et vie Sociale.
La Civilisation arabe en Espagno.

Pérés, H.:
La poésie andalouse en arabe classique au XIe siécle.

● فى اللغة البرتغالية :

Duarte Nunes de Leao:
Origem da lingua portuguesa.

Eidelino de Figueiredo:
Historia da litteratura portugueza.

obeikandl.com